محاضرات في
علوم القرآن وإعجازه

كلية الشريعة

السنة الأولى

جامعة دمشق

كلية الشريعة

قسم القرآن والحديث

محاضرات في

علوم القرآن وإعجازه

الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان

الأستاذ الدكتور نور الدين عتر

إعداد

الدكتور بديع السيد اللحام

١٤٣٩ – ١٤٤٠

جامعة دمشق

٢٠١٨ – ٢٠١٩

محتويات الكتاب

المقدمة	١١
تاريخ القُرْآن ١٣ - ٨٧	
القُرآن (تعريفه ، وحقيقته)	١٥
نُزول القُرْآن مُنَجَّماً	٢٥
حكمةُ نزولِ القرآنِ مُنجَّماً	٢٨
أَوَّلاً – تثبيت قلب النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم	٢٨
ثانياً – تيسير حفظه على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم	٢٩
ثالثاً – التَّدرُّج بالتشريع	٢٩
رابِعاً – تمييز النّاسخ عن المنسوخ	٣٠
خامساً – مراعاة سبب النُّزولِ	٣١
أسْبابُ النّزولِ	٣٣
أَوَّلاً – حكمةُ ارتباطات الآياتِ بأَسبابِ النُّزولِ	٣٦
ثانياً – أمثلة لأَسبابِ النُّزولِ	٣٧
ثالثاً – أهمية معرفة أَسبابِ النُّزولِ	٣٨
رابعاً – اهتمام العلماء بالكتابة في «أَسبابِ النُّزولِ»	٣٩
كيفيَّة جَمْعِ القُرْآن وَكتابته والأَدوار التي مرّت على ذلك	٤١
أَوَّلاً – ترتيبُ القرآنِ وكتابته في عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم	٤٣
ثانياً – ما جدَّ من ذلك في عهد أبي بكر رضي الله عنه	٤٧
ثالثاً – ما جدَّ من ذلِكَ في خلافةِ عثمانَ رضي الله عنه	٥٠

رَسْمُ القُرْآنِ ونقطه	٥٧
نقط المصحف	٦٠
الأَحْرُفُ السَّبْعةُ	٦٥
تعريف الأَحرُف السَّبْعة	٦٧
بيان الأَحرُف السَّبْعة في الحديث النبوي	٦٧
دلالة الأحاديث على أصول الموضوع	٧٠
الأَحرُف السَّبْعة والقِراءات السَّبْع	٧٢
ما هي حقيقة الأَحرُف السَّبْعة	٧٢
أين الأَحْرُف السِّتَّة ؟	٧٦
القِراءاتُ والقُرّاءُ	٧٩
تعريف القِراءَة	٧٩
ضوابط القِراءةِ المقبولةِ	٨١
الضّابطُ الأَوَّلُ: موافَقةُ العَربيَّةِ وَلَوْ بِوَجْهٍ	٨٢
الضّابِطُ الثاني: موافَقةُ خَطِّ أَحدِ المَصاحِفِ وَلَوْ احتِمالاً	٨٢
الضّابِطُ الثّالثُ: صحَّةُ السَّندِ	٨٣
أنواع القِراءات حسب أسانيدها	٨٣
القِراءات المتواترة وقراؤها	٨٤
القِراءاتُ الشّاذَّةُ	٨٦
علوم القرآن ٨٩ - ١٥١	
تمهيد	٩١
١- ما هي علوم القرآن؟	٩٣

٢- (علوم القرآن) اصطلاح خاص	٩٥
٣- متى ظهر هذا الاصطلاح؟	٩٦
تعريف علوم القرآن في الاصطلاح	٩٨
التَّصنيف في علوم القرآن	٩٩
التّفْسيرُ (حقيقتُه ، نشأتُه وتطوّره ، مذاهبُه وشروطُه)	١٠١
حقيقة التَّفسيرِ والفرق بينه وبين التَّأْويل	١٠٣
نشأةُ التَّفسيرِ وتطورُه	١٠٦
التَّفسيرُ زمنِ الصَّحابةِ	١٠٦
التَّفسير في عهد التابعين	١٠٧
تدوين التَّفسير	١١٠
مذاهب التفسير وشروطه	١١٣
المشترك بين نوعي التفسير	١١٥
شروط التَّفسيرِ	١١٦
التَّفْسيرُ العِلميُّ والتَّفسيرُ الإِشاريِّ	١١٩
المَكِّيُّ والمَدَنيُّ	١٢٣
تمهيد	١٢٥
تعريف المكّي والمدني	١٢٥
خصائصُ كلٍّ منهما	١٢٧
الفائدة من معرفة هذا العلم	١٣٠
المُبْهَمُ والمتشابَهُ في القُرْآن	١٣٣
تمهيد	١٣٥

المُبْهَمُ	١٣٧
النوع الأَوَّلُ: الأَحرُفُ المقطعة	١٣٧
النوع الثّاني: جُمَلٌ وأَلْفاظٌ فيها إِبهامٌ	١٣٩
حِكَمُ وجودِ المبهمِ في كتابِ اللهِ	١٤١
المُتَشابهُ	١٤٦
أنواع المتشابه	١٤٦
إعجـازالقـرآن ١٥٣ - ٢٢٢	
المُعجِزة لغة واصطلاحاً	١٥٥
الإعلام بإِعْجاز القرآنِ	١٥٧
مزايا الإِعْجاز القرآني	١٦٠
شهادة العرب بإِعْجازِ القرآنِ	١٦٢
شهادة غير المسلمين والأجانب بإِعْجاز القرآنِ	١٦٩
النَّظريّاتُ العامَّةُ في بيانِ إِعْجازِ القرآنِ	١٧٢
نظريَّة تفسيرِ الإِعجازِ بالصَّرفَة	١٧٣
نظريةُ إِعجاز نظم القرآن	١٧٨
نظرية إعجاز النظم الموسيقي في القرآن	١٨١
نظرية الإعجاز بالتَّصوير الفنِّي	١٨٤
تفصيل أوجه إِعْجاز القرآنِ وشمولها	١٨٧
أولاً - أوجه إِعْجاز القرآنِ من حيث البيان	١٩٠
الوجه الأول: المنهج البديع	١٩١
الوجه الثاني: الجزالةَ	١٩٢

الوجه الثالث: التفنُّن في التصرف في لسان العرب	١٩٢
١ – تعبيره عن طلب الفعل	١٩٣
٢ – تعبيره عن النهي	١٩٣
الوجه الرابع: الإبداع	١٩٥
الوجه الخامس: تأليف القرآن الصوتي في شكله وجوهره	١٩٨
١– تأليف القرآن الصوتي في شكله	١٩٩
٢– جوهر تأليف القرآن الصوتي	١٩٩
٢– الفاصلة القرآنية	١٩٩
الوجه السادس: القصد في اللفظ والوفاء بالمعنى	٢٠٣
الوجه السابع: خطاب العامة وخطاب الخاصَّة	٢٠٤
الوجه الثامن: إقناعُ العقلِ وإمْتاعُ العاطِفةِ	٢٠٥
الوجه التاسع: تآلف الألفاظ والمعاني	٢٠٧
ثانياً: الإعجاز من حيث المضمون	٢٠٩
الوجه الأول: العلوم التي اشتمل عليه القرآن	٢١٠
الوجه الثاني: الإخبار عن الغيب	٢١١
أ – الإخبار عن غيب المستقبل	٢١١
ب – الأخبار عن غيب الحاضر	٢١٢
ج – أخبار الغيب الماضي	٢١٣
الوجه الثالث: الإعجاز التشريعي	٢١٨
الوجه الرابع: اتساق نظريات القرآن وأحكامه	٢١٩
الوجه الخامس: تأثير القرآن وفاعليته في الأفئدة	٢٢١

بسم الله الرحمن الرحيم
مقدمة

﴿الحَمْدُ للهِ الذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً﴾ [الكهف : ١]، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيدنا محمَّدٍ الذي بلَّغ الرِّسالةَ، وأَدَّى الأَمانةَ، ونصحَ الأمَّةَ، وعلى آله الأَطهارِ، وصحابتِهِ الأَخيارِ، ومن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

وبعد:

فإنَّ كتابَ الله تعالى هو المَحجَّة التي لا يحيد عنها إلَّا هالك، ومن ثم فقد لقيَ هذا الكتاب العزيز من جمهور المسلمين عنايةً لا نظير لها، حفظاً وتلاوةً، وتعلُّماً وتعليماً، واتِّباعاً وعملاً، وقد سار العاملون بكتاب الله تعالى وفق منهجٍ رشيدٍ، وخطًى سديدة، متَّبعينَ قواعد محكمة، وضوابط واضحة إن في تلاوته أو فهمه، وقد عُنِيَ العلماء بتتبع هذه الضوابط والقواعد وتضمينها في مصنَّفاتٍ خاصَّة عُرِفت بـ(كتب علوم القرآن).

هذا وحريٌّ بمن سلك طريق العلم الشرعي أنْ يكونَ على معرفة وذكرٍ لِمُهمَّاتِ علومِ القرآنِ، ولذلك فقد تضمَّنت معظم مناهج الدِّراساتِ الشَّرعيَّةِ مُقرراً خاصّاً تحت هذا المسمى.

وقد سعيت في هذه المذكرة أنْ أجمعَ لطلبةِ كلية الشريعة من أبحاث علوم القرآن ما هم بمسيس الحاجة إليه، وليس لي من فضل فيما قدَّمت، فالأبحاث التي أضعها بين يديك عزيزي الطالب هي في حقيقتها مجموعة أبحاث خطَّ بعضها قلمُ العلَّامة الشهيد الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله

تعالى وأجزل له المثوبة، وخطَّ البعض الآخَر يَراع أُستاذنا المحدِّث العلامة الأستاذ الدكتور نور الدين عتر حفظه الله وزاد في نفعه، وبارك للأمَّة بعلمه وحاله.

هذا وقد تضمَّنت هذه المذكرة ثلاثة محاور رئيسية:

تناول **المحور الأول** تاريخ القرآن الكريم من حيث (نزوله وما يتعلَّق بذلك من أبحاث، وترتيبه وجمعه، ورسمه ونقطه) وهي أبحاث اعتمدت فيها على كتابات العلَّامة البوطي رحمه الله، وأضفت إليها مَبْحَثي (الأحرف السبعة، والقراءات) مما كتبه الأستاذ الدكتور عتر حفظه الله.

وأما **المحور الثاني** ففيه أبحاثٌ من علومِ القرآن، تضمَّنت (علم التفسير وما يتعلَّق به من مباحث، ومعرفة المكي والمدني، والمبهم، والمتشابه) وكان العمدة في هذا المحور على كتابات الدكتور البوطي رحمه الله.

وأمَّا **المحور الثالث** فقد أُفْرِدَ لـ(إعجازِ القرآنِ الكريم) وما يتلَّعق بذلك من مسائل، وأبحاث، والعمدة في هذا المحور على كتابات أستاذنا الدكتور عتر حفظه الله.

ولا بدَّ من التنبيه على أنَّني قد تصرَّفت قليلاً في النَّقلِ، وقمت بمراجعة النُّقول وتوثيقها من مصادرها الأساسية، وخرجت الأحاديث والآثار.

ولا يسعني إلَّا أن أشكر الأخ الدكتور محمود رمضان الذي قام بمراجعة هذا العمل كاملاً، وأبدى بعض الملاحظات التي أفدت منها، فجزاه الله كل خير.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يجعل النفع بهذه المذكرة كما نفع بأصولها.

وكتب

د. بديع السيد اللحام

تاريخ القُـرْآن

القُرآن (تعريفه ، وحقيقته)

نُزول القُرْآن مُنَجَّماً والحكمة في ذلك

أسْبابُ النّزولِ

جَمْعِ القُرْآن وَكتابته

رَسْمُ القُرْآنِ ونقطه

الأَحْرُفُ السَّبْعةُ

القِراءاتُ والقُرّاءُ

القُرآن

تعريفه ، وحقيقته

القرآن هو: **اللَّفظُ العربيُّ المُعجِزُ الموحَى به إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المتعبَّدُ بتلاوتِهِ والواصل إلينا عن طريقِ التَّواترِ.**

إذا تأمَّلت في هذا التَّعريف، وجدتَ فيه قيوداً أربعة، هي:

المُعجِز، الموحَى به، المُتعبَّد بتلاوته، المُتواتِر.

فلنشرح كلّ واحد منها على حدة، لنتبيَّن حقيقة القرآن الكريم من وراء هذا التَّعريف، ونقفَ على ضبطه وحدوده.

أَوَّلاً – المُعجِز: ويقصد منه ما اتصف به القرآن من البلاغة والبيان اللذين أعجزا بلغاء العرب كافّة عن الإتيان بأقصر سورة من مثله، رغم التحدي المتكرر، ورغم التطلّع الشديد لدى الكثير منهم إلى معارضته والتفوق على بيانه. وللقرآن وجوه غير هذا الوجه في إعجازه، ولكن الوجه المقصود منها عند التَّعريف هو هذا.

ثانياً – الموحى به: ومعناه المنزّل عليه من الله عزّ وجلّ بواسطة جبريل، وهذا أهم قيد في تعريف القرآن وتحديد ماهيته.

وإذا كان «الوحي» عنصراً هاماً في حقيقة القرآن وتعريفه، فلا بدّ من دراسة وافية – وإن كانت موجزة – لهذه الكلمة، وتحليل صادق لحقيقتها. ومن أهم أَسبابِ هذه الضرورة أن دراسات مختلفة حديثة حامت حولها، لا قصداً

لتفهمها، بل بغية مدِّ غاشية من الغموض عليها، ثم الوصول بها إلى المعنى الذي يراد ربطها به، وإن لم تكن منه في شيء.

فلنتنبَّه بفكرٍ موضوعيٍّ مجرَّدٍ وعقلٍ علميٍّ متحرّرٍ، ولنسأل مع السّائلين:

ما هو هذا الوحي الذي جاء بهذا القرآن فوضعه بين يدي محمد عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؟

أهو نوعٌ من الإلهامِ النَّفسيِّ، أم هو حركةٌ فكريَّةٌ داخليَّةٌ؟

أم هو إشراقٌ روحيٌّ جاءه عن طريقِ الكشفِ التَّدريجيِّ؟

أم هو ضربٌ من الصَّرع والجنون كان ينتابهُ – كما قد قيل –؟

أم هو استقبالٌ لحقيقةٍ ذاتيَّةٍ مستقلَّةٍ عن كيانهِ يتلقّاها من خارجِ فكرِهِ وشعورِهِ؟

ونحن لا نملك سبيلاً علمية صحيحة للإجابة على هذه الأسئلة إلّا بالرجوعِ إلى حقائقِ التّاريخِ الثّابتةِ الواصلة إلينا عن طريقِ النَّقلِ الصَّحيحِ.

وإذا رجعنا نسألُ حقائق التاريخِ فإنَّها تضعُنا أمامَ حديثِ قصَّةِ بدءِ الوحي الذي روي في الصحاح من كتب الحديث والذي يكشفُ لنا سبيلاً صحيحةً للإجابةِ على هذه الأسئلةِ.

وسأذكر نصَّ الحديث كما أورده الإمام البخاري في صحيحه[1]:

عَنِ ابْنِ شِهابٍ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنينَ أَنَّها قالَتْ: أَوَّلُ ما بُدِئَ بِهِ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيا الصّالِحَةُ في النَّوْمِ، فَكانَ لاَ يَرَى رُؤْيا إِلّا جاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاَءُ، وَكانَ يَخْلو

[1] كَيْفَ كانَ بَدْءُ الوَحْيِ إِلَى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ رقم (٣و٤).

بِغارِ حِراءٍ فَيَتَحَنَّثُ فيهِ – وَهوَ التَّعَبُّدُ – اللَّيالِيَ ذَواتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَديجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِها، حَتَّى جاءَهُ الحَقُّ وَهوَ في غارِ حِراءٍ، فَجاءَهُ المَلَكُ فَقالَ: اقْرَأْ، قالَ: «ما أَنا بِقارِئٍ»، قالَ: «فَأَخَذَني فَغَطَّني حَتَّى بَلَغَ مِنّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَني، فَقالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: ما أَنا بِقارِئٍ، فَأَخَذَني فَغَطَّني الثّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَني، فَقالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: ما أَنا بِقارِئٍ، فَأَخَذَني فَغَطَّني الثّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَني، فَقالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ [العلق: ٢] فَرَجَعَ بِها رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْجُفُ فُؤادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَديجَةَ بِنْتِ خوَيْلِدٍ رَضيَ اللهُ عَنْها، فَقالَ: «زَمِّلوني زَمِّلوني» فَزَمَّلوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقالَ لِخَديجَةَ وَأَخْبَرَها الخَبَرَ: «لَقَدْ خَشيتُ عَلَى نَفْسي» فَقالَتْ خَديجَةُ: كَلّا واللهِ ما يُخْزيكَ اللهُ أَبَداً، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدومَ، وَتَقْري الضَّيْفَ، وَتُعينُ عَلَى نَوائِبِ الحَقِّ، فانْطَلَقَتْ بِهِ خَديجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى ابْنَ عَمِّ خَديجَةَ وَكانَ امْرَأً تَنَصَّرَ في الجاهِلِيَّةِ، وَكانَ يَكْتُبُ الكِتابَ العِبْرانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجيلِ بِالعِبْرانِيَّةِ ما شاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكانَ شَيْخاً كَبيراً قَدْ عَميَ، فَقالَتْ لَهُ خَديجَةُ: يا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخيكَ، فَقالَ لَهُ وَرَقَةُ: يا ابْنَ أَخي ماذا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ ما رَأَى، فَقالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذا النّاموسُ الَّذي نَزَّلَ اللهُ عَلَى موسَى، يا لَيْتَني فيها جَذَعاً، لَيْتَني أَكونُ حَيّاً إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوَ مُخْرِجيَّ هُمْ»، قالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ ما جِئْتَ بِهِ إِلّا عودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْني يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ.

قالَ ابْنُ شِهابٍ: وَأَخْبَرَنِي أَبو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ جابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الأَنْصارِيَّ، قالَ: وَهوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الوَحْيِ فَقالَ في حَديثِهِ: «بَيْنا أَنا أَمْشي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ السَّماءِ، فَرَفَعْتُ بَصَري، فَإِذا المَلَكُ الَّذي جاءَني بِحِراءٍ جالِسٌ عَلَى كُرْسيٍّ بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلوني زَمِّلوني» فَأَنْزَلَ اللهُ تَعالَى: ﴿يا أَيُّها المُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: ٢] إِلَى قَوْلِهِ ﴿والرُّجْزَ فاهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥]. فَحَميَ الوَحْيُ وَتَتابَعَ.

ولا بدَّ من أنْ نتوقَّف عند الحقائق التالية التي أتى الحديثُ على ذكرها:

– ففيه أنَّ مَلَكاً فاجأَهُ في غارِ حِراء يتعبَّدُ، فقالَ لهُ: اقرأ، فقالَ: ما أنا بقارئٍ، فأخذهُ المَلَكُ فغطَّهُ حتى بلغ منه الجهد ثم أَرسلهُ، فقال: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئٍ، وتكرَّر هذا من المَلَكِ والرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ثلاثَ مرّاتٍ، وفي المرَّةِ الثّالثةِ قال المَلَكُ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذي عَلَّمَ بِالقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ – ٥] فكانَ ذلكَ أوَّل ما نزلَ من القرآنِ.

– وفي الحديثِ أَيضاً أَنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نزل عقب ذلك من الغار عائداً إلى البيت وإن فؤاده ليرتجف خوفاً.

– وفي الحديثِ أَيضاً: أنَّ خديجةَ ذهبت به إلى ورقةَ بنِ نوفلٍ، وكان شيخاً كبيراً قد تنصَّرَ في الجاهليةِ فأخبرَهُ بالأَمْرِ، فقالَ لهُ ورقةُ: إنَّ هَذا هو النّاموس (أي الوحي) الذي نزلَ على موسى، وطمأَنهُ أنَّه ليسَ شرّاً.

– وفي الحديثِ أَيضاً أنَّ الوحيَّ قد انقطَعَ بعدَ ذلك مدَّةً طويلةً من الزَّمنِ، وأنَّ الضّيقَ والأَلَمَ قد استبدّا به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من ذلكَ، خوفاً من أنْ

يكونَ قد أَساءَ فتحوَّل عنه الوحيُّ لذلك. ثم إنَّه رأى ذلِكَ المَلَكَ مرَّةً أُخرى، وقد مَلأَ مَظهَرُهُ ما بينَ السَّماءِ والأَرْضِ، قال: فرعِبْتُ منه ورجعْتُ فقلتُ: زَمِّلوني زَمِّلوني.. فنزلَ عليه قوله تعالى ﴿يا أَيُّها المُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ * والرُّجْزَ فاهْجُرْ﴾ [المدثر: ١ - ٥] ثم تتابع الوحي بعد ذلك.

هذه الحقائق الواردة في هذا الحديث لا يمكن أنْ نتجاهلها أو نردّها بشكلٍ ما، لسببين:

أَوَّلهما – أنَّ ظاهرةَ الوحي التي يتحدَّثُ الكاتبون عن حقيقتها إنَّما وصلت إلينا عن طريقِ هذا الحديث ونحوِه، فإذا ضربتَ صفْحاً عنه فاضرب صفْحاً عن هذه الكلمةِ نفسِها، إذ لا معنى للبحثِ في شيءٍ غير موجودٍ ولا واقعٍ من أساسِه.

ثانيهما – أنَّ الحديثَ ليسَ من قبيلِ هذه الاستنتاجات النَّظريَّةِ أو التاريخيَّةِ التي يجنحُ إليها كثيرٌ من باحثي هذا العصر ويبنون عليها أحمالاً وأثقالاً من الأحكام الخطيرة الهامة، بل هو خبرٌ نُقِلَ بواسطة سندٍ متصلٍ من الرّواة، خلا أَصحابُه – بعد الدراسة لتراجمهم وأحوالهم – عن أي تهمة تبعث الشَّكَّ في كلامهم.

وإذا فرضنا أن يكون الوحيُ ليس إلّا شعوراً نفسيّاً أو إشْراقاً روحيّاً أو إلهاماً داخليّاً، ثم عدنا إلى هذا الحديث، وجدناه يناقض هذا الفَرض مناقضةً صريحةً صارخةً، لأَسبابٍ كثيرةٍ نذكر منها ما يلي:

١ – إنَّ شيئاً من حالاتِ الإلهامِ أو حديث النفس أو الإشراق الروحي، لا يستدعي الخوف والرعب واصفرار اللون، وليس ثمة أي انسجام بين التدرّج في

التفكير والتأمّل من ناحية، ومفاجأة الخوف والرعب من ناحية أخرى؛ وإلا لاقتضى ذلك أن يعيش عامّة المفكرين والمتأملين والملهمين نهباً لدفعات من الرعب والخوف المفاجئة المتلاحقة!

وأنت خبيرٌ أنَّ الخوف والرعب ورجفان الجسم وتغيّر اللون – كل ذلك من الانفعالات القسرية التي لا سبيل إلى اصطناعها والتَّمثيل بها.

إنَّ صاحب الإلهام والإشراق النفسي والروحي، ليس من شأنه أن تتجسَّد إلهاماته أمام عينيه فجأة فيرتعد منها ثم يحسبها أتيّاً من الجنّ. ولقد فوجئ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالـمَلَك يخاطبه ويكلّمه، ولقد ارتجف خوفاً منه وذهب في محاولة معرفته كلَّ مذهبٍ، حتى ظنَّ أنَّه قد يكون من الجانِّ، وذلك معنى قوله لخديجة «لَقَدْ خَشيْتُ عَلى نَفْسي».

٢– لقد قضت الحكمةُ الإلهية أن يحتجب عنه الـمَلَكُ الذي رآه لأوَّل مرَّةٍ في غارِ حِراء، مدَّةً طويلةً؛ ولقد استبدَّ به القلق والضَّجر من أجل ذلك، ثم تحوَّل القلق لديه إلى خوفٍ في نفسه من أنْ يكونَ اللهُ عزّ وجلّ قد قَلاه، بعد أن أراد أن يشرِّفه بالوحي والرسالة لسوءٍ قد صدر منه، حتى لقد ضاقت الدنيا عليه، وراحت تحدّثه نفسُه كلَّما وصلَ إلى ذروةِ جبلٍ أنْ يلقي بنفسه منها .. إلى أنْ رأى بنفسِه المَلَكَ الذي رآه في حِراء وقد ملأ شكلُه ما بين السماء والأرض: يقول: «يا محمد أنت رسول الله إلى النّاس».

إن هذه الحالة التي مرَّ بها محمد عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، تجعل مُجرَّد التَّفكيرِ في كون الوحي إلهاماً نفسيّاً ضرباً من الهَوَسِ والجنونِ. إذْ من البداهة بمكانٍ أنَّ صاحبَ الإلهامات النفسيَّة والتَّأمُّلاتِ الفكرية لا يمكن أن يمرَّ إلهامه أو تأمُّلاته بشيءٍ من هذه الأحوال.

وأنت إذا تأمَّلتَ في هذا الذي ذكرناه، اتَّضحتْ أَمامَك الحكمةُ الإلهيةُ العُليا في أنْ يولد الوحي وتسير النبوّة في حياة محمد صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بهذا الشَّكلِ الذي وردَ به الحديثُ.

فقد كانَ اللهُ عزّ وجلّ قادراً على أنْ يربِطَ على قلب رسوله، ويُطمئن نفسه بأنَّ هذا الذي كلَّمه ليس إلّا جبريل – مَلَك من مَلائكةِ اللهِ – جاء ليخبره أنَّه رسول الله إلى النّاسِ؛ ولكن الحكمةَ الإلهيَّة الباهرة تريد إظهارَ الانفصال التّام بين شخصيَّة محمدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قبلَ البعثة، وشخصيته بعدها، وبيان أنَّ شيئاً مما قد نزل إليه من هذا الكتاب لم يطبخ في ذهنه مُسْبَقاً، ولم يتصوَّر الدعوة إلى شيءٍ منه سلفاً.

غير أنَّ هذا وحده لا يكفي جواباً على كلِّ شيءٍ في الموضوع، فقد يسأل سائل: لماذا كان ينزل عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الوحي بعد ذلك، وهو بين الكثير من أصحابه، فلا يرى المَلَكَ أحدٌ منهم سواه؟

والجواب: أَنَّه ليس شرط وجود الموجودات أن تُرى بالأبصار، إذ إنَّ قوَّة الإبصارِ فينا محدودة بحدٍّ معيَّنٍ، وإلّا لاقتضى ذلك أنْ يكون الشيءُ معْدوماً إذا ابتعد عن البصر بُعداً يمنع من رؤيته. على أنَّ من اليسير على الله عزّ وجلّ – وهو الخالق لهذه العيون المبصرة – أن يزيد في قوَّة ما شاء منها فيرى ما لا تراه العيون الأخرى. ولعلَّك تعلم أنَّ هنالك ألواناً لا تراها كلُّ العيون، وهنالك أيضاً – كما يقولُ مالك بن نبي – مجموعةٌ من الإشعاعات الضوئية دون الضوءِ الأحمر وفوق البنفسجيِّ لا تراها أَعيننا، ولا شيءُ يُثبتُ علميّاً أَنَّها كذلك بالنسبة لجميع العيون. فلقد توجد عيون أقل أو أكثر حساسيَّة.

ثم إنَّك لو ذهبت تحلِّلُ الوحي بأنه ظاهرة نفسيَّة داخلية، لامتزج القرآن بالحديث، ولما أمكنَ أن يكون ثمَّة أي فرق بينهما، مع أنَّ الفرق بينهما ظاهرٌ واضحٌ، يتمثَّلُ في أسلوب كلٍّ منهما ويتمثَّلُ في علاقته صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بكلٍّ منهما.

– فقد كان يرسِلُ أَلفاظَ الحديثِ إِرْسالاً، مكتفياً بأنْ يستودعه ذاكرةَ أصحابِه، على حين يأمرُ بتسجيلِ كلِّ ما يوحى إليه من آيِ القرآن ويظلُّ يكرِّره ويُعيدُه خوفاً من أنْ ينساه فلا يذكره.

– وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُسأَلُ أَحياناً عن أمورٍ فلا يُجيب عليها، وربما مرَّ على إمساكه عنها زمنٌ طويلٌ، حتى إذا نزلت آيةٌ من القرآن في شأن ذلك السؤال، طلبَ السائلَ وتَلا عليه ما نزلَ من القرآنِ في شأنه.

– وربَّما تصرَّف هو نفسه في بعضِ الأمورِ على نحوٍ معيَّن، فنزلت آياتٌ من القرآنِ تصرِفه عن ذلك الوجهِ، بل رُبَّما انطوت على شيءٍ واضحٍ من العتبِ الرقيقِ.

– ثم إنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان يُعلِن في كلِّ مرَّةٍ أنَّ القرآن كلام الله، وأنه ليس إلّا أَميناً على نقلِه وتبليغِه، وأنَّه يتلقّاه من جبريل عليه السلام.

لقد ظلَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ صادقاً أَربعين سنةً مع قومِهِ، حتى كان بينهم مثال الصِّدقِ والأمانةِ. وبدهي أنَّ مثل هذا الإنسان لا بدَّ أن يكون قبل كلِّ ذلك صادقاً مع نفسه، يتحرَّى الدِّقة في كلِّ مشاعره وأقواله وإحساساته.

وبعد ذلك كلِّه، فقد أَجمعَ المؤرِّخونَ أَنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان أُميّاً لم يقرأْ كِتاباً ولا خطّهُ بيمينه، ولم يدرس تشريعاً ولا تاريخاً ولا شيئاً من قصصِ

الرُّسلِ والأنبياء السابقينَ، فمن أيِّ نافذةٍ طبيعيةٍ يمكن لهذه الإلهامات كلها أن تتنزَّل عليه، وكيف لها بأن تنبع هكذا من داخل قلبه وعقله؟

لا جرَم أنَّ الوحي القرآني إذاً، **إنّما هو استقبال منه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لحقيقةٍ ذاتيةٍ مستقلَّةٍ خارجةٍ عن كيانه وشعورِه الدّاخليِّ؛ وبعيدة عن كسبِه أو سلوكه الفكري أو العملي.**

أما قول بعضِ المستشرقين بأنَّه لم يكن إلّا نوعاً من الصَّرع ينتابه بين الحين والآخر، فليس من النَّظريّاتِ العلميَّة الموضوعيَّة في شيءٍ حتى نضعه تحت مجهر البحث والنقاش، ونضيّع وقتاً قصيراً أو طويلاً في الكلام عنه.

ونعود بعد هذا إلى شرح القيود المأخوذة في تعريف القرآن الكريم:

ثالثاً – التعبّد بتلاوته: والمقصود به أنَّ من خصائص هذا الكتاب الكريم

– أنَّ مجرَّد قراءته يُعَدُّ نوعاً من العبادة المشروعة تُكسبُ القارئَ أَجراً ومثوبةً عند الله.

– وأنَّ الصَّلاة لا تصحُّ إلّا بقراءةِ شيءٍ منه ولا يُغني عنه غيره من الأذكار أو الأدعية أو الأحاديث.

رابعاً – وصوله عن طريق التَّواتر: ومعناه أنَّ قُرآنيَّة آيةٍ من القرآن لا تثبت حتَّى تصلَ إلينا بطريق جموع غفيرة لا يمكن اتِّفاقها أو توافقها على الكذبِ، ترويها عن جموعٍ مثلها إلى الناقلِ الأوَّل لها بعد أن تنزَّلت عليه وحياً من الله عزّ وجلّ، وهو سيدنا محمد عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

فإذا تأمَّلت هذه القيود الأربعة في التَّعريف تصوَّرت حقيقةَ القرآن خاليةً عن شَوْبٍ أي لَبْسٍ بالحديثِ النَّبويِّ.

أو القراءات الشاذّةِ[1].

أو الحديث القدسي[2].

أو الترجمة الحرفية أو التَّرجمةِ غير الحرفيَّة للقرآن.

إذ الحديثُ النبوي ليس بمُعجِزٍ، وكذا الحديث القدسي ليس بمعجزٍ ذلك لأن اللَّفظ فيه من الرسول عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

والقراءاتُ الشّاذّة غير متواتِرة.

وأمّا التَّرجمةُ ليست هي اللَّفظ المنزّل.

---

[1] انظر الفرق بين القراءة المُتواترة والقراءة الشاذة ص١٠٥.

[2] الحديث القدسي: هو ما قال فيه رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال الله، أو يقول الله ، ... بما لم ينصّ على قرآنيته.

نُزولُ القُرآنِ مُنَجـَّماً

والحكمة في ذلك

حكمةُ نزولِ القرآنِ مُنجَّماً

أَوَّلاً - تثبيت قلب النبيِّ صلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّم

ثانياً - تيسير حفظه على النبيِّ صلَّى اللّٰهُ عليه وسلَّم

ثالثاً - التَّدرُّج بالتشريع

رابعاً - تمييز النّاسخ عن المنسوخ

خامساً - مراعاة سبب النُّزولِ

يقولُ الله تعالى في كتابه: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً﴾ [الإسراء: ١٠٦].

ويقولُ أيضاً: ﴿وَقالَ الَّذينَ كَفَروا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتيلاً﴾ [الفرقان: ٣٢].

نعلم من دلالة هاتين الآيتين، ومما ثبت ثبوتاً قاطعاً في السنَّةِ والتاريخ عن طريق السَّندِ الصحيح، أنَّ القرآن لم ينزلْ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جملةً واحدةً كما نزلت التَّوراةُ على سيدنا موسى، بل كان نزولُه متدرِّجاً، فتارةً تنزل عليه الآية أو الآيتان أو ثلاث آيات، وتارةً تنزل عليه سورة بجملتها، كـ(الفاتحةِ)، و(المدّثر)، وهذا معنى أنَّه كان ينزل مُنَجَّماً، وقد ظلَّت آياتُ هذا الكتابِ المُبينِ تتابعُ على مهْلٍ وتدرُّجٍ، حتى نزلت آخرُ آيةٍ منها قبل وفاتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتسعِ ليالٍ، وهو قوله تعالى: ﴿واتَّقوا يَوْماً تُرْجَعونَ فيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وذلك على ما رجَّحه كثيرٌ من العلماءِ، فقد روى البُخاريُّ[1] معلَّقاً عنِ ابْنِ عَبّاسٍ رضي الله عنهما قالَ: «هَذِهِ آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

---

[1] في البيوع، بابُ موكِلِ الرِّبا لِقَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿**يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا اتَّقوا اللهَ وَذَروا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلوا فَأْذَنوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسولِهِ**﴾ قبل الحديث رقم (٢٠٨٦). وانظر البرهان للزركشي ٢٠٩/١ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦٠/١.

حكمةُ نزولِ القرآنِ مُنجَّماً:

هنالك حِكَمٌ هامَّةٌ وكثيرةٌ تتعلَّقُ بنزولِ القرآنِ منجَّماً، نذكرُ منها ما يلي:

أَوَّلاً – تثبيت قلب النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

لقد قضت سنّة الله تعالى في عبادِه أن يُلاقي النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أذىً كبيراً من قومه من أجل نهوضه بينهم بتبليغ رسالة ربِّه، وقد لاقى أَنْواعَ الشَّدائدِ التي جعلتْه بينهم مدَّةً طويلةً غريباً لا ناصرَ له.

ولقد كان اتِّصالُ الوحي به إذْ ذاك وتتابعُ نزولِ الآياتِ عليه يشدُّ من أَزْرِه، ويحمِلُه على الصَّبرِ والمصابرة، ويعدُه بالنَّصرِ والتأْييد في نهاية المطاف، كان لذلك أبلغ الأثر في مواساته وتخفيف تلك الشِّدة عنه وإزاحة معاني الغربة والضَّعف عن نفسِه. فمن هذه الآيات مثلاً:

قوله تعالى: ﴿فاصْبِرْ عَلَى ما يَقولونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الغُروبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبارَ السُّجودِ﴾ [ق: ٣٩- ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿فاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ المُشْرِكينَ * إِنّا كَفَيْناكَ المُسْتَهْزِئينَ * الَّذينَ يَجْعَلونَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمونَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضيقُ صَدْرُكَ بِما يَقولونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السّاجِدينَ * واعْبُدْ رَبَّكَ حَتّى يَأْتِيَكَ اليَقينُ﴾ [الحجر: ٩٤ – ٩٩].

فلو أنَّ القرآنَ نزل كلَّه عليه جملةً واحدةً، لكان لانقطاع الوحي عنه بعد ذلك أثرٌ كبيرٌ في استشعاره الوحشة والغربة. ومهما يكن رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد أوتيَ من العزيمةِ والصَّبرِ، فإنَّ لبشريَّته أَيضاً أثراً بيّناً في حياتهِ ما دام أنَّه بشرٌ.

وقد كان لديه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من قوَّة الإيمانِ بالله ما يكفي لأنْ يحمله على تبليغ دعوة ربِّه والجهاد في سبيلها؛ ولكنَّه على ذلك لم يكن به غناء عن المواساة والمعونة والتَّصبير إذ يأتيه كلُّ ذلك من ربِّه المرَّة تلوَ المرَّة، يعيده إلى الأَمنِ والانشراح والأُنسِ والرِّضى.

وهذا المعنى هو ما عبَّر عنه كتاب الله بالتَّثْبيتِ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢].

ثانياً – تيسير حفظه على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أميّاً لا يقرأُ ولا يكتبُ، فليس لديه من الوسائلِ الكسبيَّةِ ما يضبط به ويحفظ به كلَّ ما ينزلُ عليه إلّا وسيلة التَّكرارِ والحفظ، فكان لا بدَّ من نزولِ الآيات بتدرّجٍ وخلالَ فتراتٍ متقطِّعة مِنَ الزَّمنِ حتى يكون السبيل إلى حفظِه ووعيهِ أَيسر. وعلى الرَّغمِ من ذلك فقد كانَ من عادتهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إذا نزلت عليه الآية من القرآن أن يأخذَ في تَكْرارِها ويستعجلَ في محاولةِ حفظِها، ويظلُّ يحرِّكُ لسانَه بها خشيةَ أن تتفلَّت من حفظه إلى أن نزلَ عليه قوله تعالى: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٦-١٧].

ثالثاً – التَّدرُّج بالتشريع:

لقد احتَوى القرآنُ على متنِ الفقهِ الإسلاميِّ كلِّه، أي على عامَّةِ أحكامِه في الجملةِ، سواء ما يتعلَّق بالعبادات، أو المعاملات المدنية، أو أحكام الأسرةِ، أو العقوبات أو النُّظم الدستوريَّة الماليَّةِ.

وكان العرب قبلَ الإسلامِ متفلِّتين عن كلِّ قيْدٍ، لا يخضعونَ لقانونٍ ولا يرتبطونَ بأيِّ تنظيمٍ، فكان من العسيرِ عليهم أن ينتقِلوا من تلك الحالةِ في طفرةٍ مُفاجِئةٍ، إلى التقيِّد بعامّةِ أَحكامِ الإسلامِ ونُظُمِه وقوانينه.

فمن أجل ذلك أخذهم القرآن في ذلك بالوسيلة التربويَّةِ التي لا بدَّ منها، وهي وسيلةُ التدرّج في نقلهم من حياة الفوضى والتَّفلُّت، إلى حياة النِّظامِ والتقيد بالمعايير التي لا بدَّ منها في المجتمع الصالح.

– فنزلَت أوَّلاً الآياتُ المتعلِّقة بالعقيدة ودلائلها، حتى آمن النّاس وثابوا إلى عقيدة التوحيد.

– ثمَّ نزلت آيات الحلال والحرام وعامة الأحكام في مهلٍ وتدرّج. وفي ذلك يروي الإمامُ البخاريُّ[1] عن عائشةَ رضي الله عنها أَنَّها قالَتْ: إِنَّما نَزَلَ أَوَّلَ ما نَزَلَ مِنْهُ سورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ، فيها ذِكْرُ الجَنَّةِ والنّارِ، حَتَّى إِذا ثابَ النّاسُ إِلَى الإِسْلاَمِ نَزَلَ الحَلاَلُ والحَرامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لاَ تَشْرَبوا الخَمْرَ، لَقالوا: لاَ نَدَعُ الخَمْرَ أَبَداً، وَلَوْ نَزَلَ: لاَ تَزْنوا، لَقالوا: لاَ نَدَعُ الزِّنا أَبَداً...

رابِعاً – تمييز النّاسخ عن المنسوخ:

اقتضى التدرّجُ بالنّاسِ في التَّشريعِ أنْ يوجد ثمَّة ناسخٍ ومنسوخٍ، إذْ رُبَّ حُكَمٍ كانتْ المصلحةُ والرَّحمةُ بالنّاسِ تقتضي أَخذهم به على مراحل، كتحريم الخمر مثلاً، فقد اكتفى القرآن في أَوَّلِ الأمر ببيان أن أضراره أكثر من فائدته، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلونَكَ عَنِ الخَمْرِ والمَيْسِرِ قُلْ فيهِما إِثْمٌ كَبيرٌ وَمَنافِعُ لِلنّاسِ وَإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما﴾ [البقرة: ٢١٩] ، حتى إذا استقرّ في النفوس ذلك، نزلت آية تنهى

---

[1] في كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، (٤٩٩٣).

النّاس عن السكر في أوقات الصلاة، وذلك في قوله: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تَقْرَبوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارَى حَتَّى تَعْلَموا ما تَقولونَ﴾ [النساء: ٤٣] وهو كما ترى تحريم جزئي في فترات متقطعة مِنَ الزَّمنِ. فلما أخذ النّاس أنفسهم بذلك واعتادوا الامتناع عن الخمر في تلك الأوقات، نزلت آية قاطعة تحرمه تحريماً كلياً. وذلك هو قوله تعالى: ﴿إِنَّما الخَمْرُ والمَيْسِرُ والأَنْصابُ والأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فاجْتَنِبوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

وأنت خبير أن كل مرحلة من هذه المراحل السابقة إِنَّما هي نسخ لما قبلها، وتصعيد بالنّاس إلى طور جديد نحو تكامل التشريع واستقراره.

وهذا لا يتم – كما تعلم – إِلّا بنزول القرآن منجّماً على فترة طويلة مِنَ الزَّمنِ.

خامساً – مراعاة سبب النُّزولِ:

اقتضتْ حكمةُ اللهِ تعالى أنْ تكونَ عامَّةُ أَحكامِهِ التي تضمَّنها كتابَه المبين، جواباً عن أَسئلةِ أو حلّاً لمشكلاتٍ واقعةٍ، حتى تكونَ أوقعَ في النَّفسِ وألصق بالحياةِ، وتلك وسيلةٌ تربويَّةٌ ظاهرةٌ لا تحتاج إلى مزيدِ بيانٍ لها. وإِنَّما سبيل ذلك أن تتدرَّجَ هذه الأَحكامُ وآياتُها في النُّزولِ تنتظرُ مناسباتها وظروفها.

ولذلك نجد أن عدداً من آيِ القرآنِ إِنَّما نزلَ جواباً عن سؤالٍ أَو حلّاً لإِشكالٍ:

فمنَ الأوَّلِ قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلونَكَ عَنِ اليَتامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخالِطوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ واللهُ يَعْلَمُ المُفْسِدَ مِنَ المُصْلِحِ وَلَوْ شاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزيزٌ حَكيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلونَكَ عَنِ المَحيضِ قُلْ هوَ أَذىً فاعْتَزِلوا النِّساءَ في المَحيضِ وَلا تَقْرَبوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذا تَطَهَّرْنَ فَأْتوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوّابينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقوله جلّ جلاله: ﴿يَسْأَلونَكَ عَنِ الأَنْفالِ قُلِ الأَنْفالُ للهِ والرَّسولِ فاتَّقوا اللهَ وَأَصْلِحوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطيعوا اللهَ وَرَسولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ﴾ [الأنفال: ١].

ومن الثّاني قوله:

﴿وَلا تَنْكِحوا المُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنْكِحوا المُشْرِكينَ حَتَّى يُؤْمِنوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وقوله تعالى: ﴿إِنّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الكِتابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ بِما أَراكَ اللهُ وَلا تَكُنْ لِلْخائِنينَ خَصيماً﴾ [النساء: ١٠٥].

فقدْ نزلَ كلٌّ منها حلّاً لمشكلةٍ حدثت، ويطول بنا الحديث لو سردنا لك قصة كلٍّ منها.

وثمَّة حِكَمٍ أخرى جليلة لهذه الظّاهرة في نُزولِ القرآن، نمسك عن سرْدِها والإطناب فيها، استغناءً بما ذكرنا، واكتفاءً بالنَّماذجِ عن الاستقصاءِ.

أَسْبابُ النّزولِ

تعريف سبب النزول

أَوَّلاً -حكمةُ ارتباطات الآياتِ بأَسبابِ النُّزولِ

ثانياً -أمثلة لأَسبابِ النُّزولِ

ثالثاً -أهمية معرفة أَسبابِ النُّزولِ

رابعاً -اهتمام العلماء بالكتابة في «أَسبابِ النُّزولِ»

تبيَّن لكَ ممّا تقدَّمَ ذكره من نزولِ القرآنِ مُنجمَّاً والحكمة من ذلك، أنَّ بعض آيات القرآن كان ينزل بمناسباتٍ ولأَسبابٍ.

والواقع أنَّ آيات القرآن تنقسِمُ إلى طائفتينِ بالنَّظرِ لأَسبابِ النُّزولِ:

– فأمّا الطّائفة منها – وهي التي تتعلَّق بالتَّشريعِ والأحكام والأخلاق – فمعظمها كان نزوله مرتَبِطاً بأَسباب ووقائع.

وأَمّا الطّائفة الأخرى – وهي التي تتحدث عن الأمم الغابرة وما حلَّ بها أو عن وصف الجنة والنار والقيامة – ففيها الكثير مما نزل ابتداء بدون سبب أو واقعة معينة.

و**سبب النزول**، كما يعرِّفه الدكتور نور الدين عتر[1]: «سبب النزول ما نزلت الآية أو الآيات تتحدَّث عنه أيام وقوعه».

وهذا القيد «أَيّام وقوعِهِ» يعدُّ شرطاً جوهرياً لبيان سببِ النُّزولِ وتمييزِهِ عنِ الآياتِ التي نزلت للإِخْبارِ بالوقائع الماضيَّةِ، لذا انتقد العلماء ما ذكره الواحديُّ في تفسيره (سورة الفيل) من أَنَّ سببَها قصَّة قدومِ الحبشةِ إلى مكَّة ومعهم الفيل قبل بعثته صلى الله عليه وسلم، فإِنَّ ذلك ليسَ من أَسبابِ النُّزولِ في شيءٍ، بل هو من باب الإِخْبارِ عن الوقائعِ الماضيةِ، كذكر قصَّةِ نوحٍ وعادٍ وثمود وبناءِ البيت ... ونحو ذلك.

---

[1] في كتابه علوم القرآن الكريم: (ص: ٤٦).

هذا وسنتحدَّثُ في ما يلي

- أَوَّلاً عن حكمة هذا الأمر.
- ثم نورد أمثلة ونماذج لذلك.
- ثم نذكر أهمية معرفة أَسبابِ النُّزولِ في التفسير.
- ونذكر أَخيراً اهتمام العلماء بالكتابة عنه وإفراد التآليف فيه.

أَوَّلاً – حكمةُ ارتباطات الآياتِ بأَسبابِ النُّزولِ:

ولقد علمتَ أنَّ أَكثَرَ آيات القرآنِ الكريم نزلَت ابتداءً بدون سببٍ.

وإذا تأمَّلتَ، وجدت أنَّ معظمَ ما نزل ابتداءً إنَّما هو من نوع الوصف والإخبار، وأنَّ معظم ما نزل بسبب إنَّما هو من نوع الأوامر والنواهي والتوجيه والإرشاد.

وهذه الظّاهرةُ تدلك على الحكمة في هذا الأمر.

فهذا النَّوعُ الثّاني من الآيات، إنَّما شأنه تحويل حياة النّاس إلى الأفضل، وصدّهم عن السَّيءِ والقبيح، وهدايتهم إلى الأَقْوَمِ، وأنت خبيرٌ أنَّ الأفكارَ التَّوجيهيَّة والأحكام التَّشريعيَّة تكون نظرية بمقدارِ بُعْدِها عن ظروفها وعن ارتباطِها بأَسبابِها العمليَّة، ولن تجد وسيلة إلى ترسيخ حكمٍ من الأحكام في الأذهان وتنبيه الأفكارِ إلى مدى صلاحه وقيمتِه، خيراً من أنْ تعرضَه على النّاس في مجال تطبيقه وتقديمه عند الحاجة إليه، وإنَّها لطريقة تربوية معروفةٌ لا تحتمل البحث والمِراء.

فمن أجل ذلك قدَّم القرآن الكريم إلى النّاس أَحكامه التَّشريعيَّة ومعظم توجيهاته الأَخلاقيَّة منثورة ومقسمة على الوقائع والأحداث أَو الأَسئلة

والاستشكالات، حتى تمتزِجَ هذه الأَحكام مع الوقائعِ وتغرس في تربة التَّطبيقِ فور ظهورها وولادتها، فيكون ذلك أدعى لحفظها وأبين لقيمتها وصلاحيتها.

أما النوع الأَوَّلُ – وهو ما يتعلَّقُ بوصفِ القيامةِ والجنَّةِ والنّارِ، وذِكرِ القصصِ – فليس الشأن في ذلك متوقِّفاً على ما ذكرناه، فسيّان في تبليغها للنّاس وإخبارهم عنها أنْ تَنْزِلَ آياتُها ابتداءً أَو لمناسبةٍ وسبب.

ثانياً – أمثلة لأَسبابِ النُّزولِ:

١ – رويَ في الصحيحِ عَنْ جابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما، قالَ: عادَني النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَبو بَكْرٍ في بَني سَلِمَةَ يَمْشيانِ، فَوَجَدَني لا أَعْقِلُ، فَدَعا بِماءٍ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيَّ مِنْهُ، فَأَفَقْتُ، فَقُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ في مالي يا رَسولَ اللهِ؟ فَنَزَلَتْ[1]:

﴿يوصيكُمُ اللهُ في أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِساءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثا ما تَرَكَ ... ﴾ الآية [النساء: ١١].

٢ – أَخرجَ التِّرمذيُّ عَنْ عائِشَةَ رَضيَ اللهُ عَنْها، قالَتْ: أُنْزِلَتْ عَبَسَ وَتَوَلَّى في ابْنِ أُمِّ مَكْتومٍ الأَعْمَى فَقالَتْ: أَتَى إِلَى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَعَلَ يَقولُ: أَرْشِدْني، قالَتْ: وَعِنْدَ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عُظَماءِ المُشْرِكينَ، قالَتْ: فَجَعَلَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْرِضُ عَنْهُ وَيُقْبِلُ عَلَى الآخَرِ وَيَقولُ: «أَتَرَى ما أَقولُ بَأْساً» فَيَقولُ: «لا» فَفي هَذا أُنْزِلَتْ[2]: ﴿عَبَسَ

---

[1] البخاريُّ في تفسيرِ القرآنِ، بابُ قَوْلِهِ: ﴿يوصيكُمُ اللهُ في أَوْلاَدِكُمْ﴾ [النساء: ١١] (٤٥٧٧)، ومسلم في الفرائض، بابُ ميراثِ الكَلالَةِ (١٦١٦).

[2] الترمذي في تفسير القرآن، باب وَمِنْ سورَةِ عَبَسَ (٣٣٣١).

وَتَوَلَّى * أَنْ جاءَهُ الأَعْمَى * وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ [عبس: ١ - ٤].

ثالثاً – أهمية معرفة أَسبابِ النُّزولِ:

لمعرفةِ أَسبابِ نُزولِ الآياتِ، أهمية كبرى في تجليةِ معانيها، والوقوفِ على حقيقةِ تفسيرها، إذ رُبَّ آيةٍ من القرآنِ يعطي ظاهرها دلالاتٍ غير مقصودة منها، فإذا وقفتَ على مناسبتها وسببِ نزولها انحسَر عنها سبب اللَّبس وظهرت فيها حقيقة المعنى ومدى شموله واتساعه.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ المَشْرِقُ والمَغْرِبُ فَأَيْنَما تولّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥].

فالمُتبادِر من ظاهرها أنَّ الاتِّجاهَ في الصَّلاةِ إلى كلِّ الجهاتِ سواء، فللمصلي أنْ يتَّجهَ إلى حيثُ يشاءُ في صلاتِه، ولكنَّك إذا وقفتَ على سببِ نُزولِ هذه الآية رأَيْتَ أَنَّها لا تحمل هذه الدَّلالةَ المُطلقةَ، وسببُها على ما رواه الواحدي في كتابِه (أَسباب النُّزولِ) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعث سرية فأصابتهم ظلمة، فلم يعرفوا القبلة، فاتجه كلٌّ منهم ناحية حسب ظنه واجتهاده، فلما قفلوا عائدين سألوا رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن ذلك فسكت، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ المَشْرِقُ والمَغْرِبُ فَأَيْنَما تولّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥][1].

---

[1] أسباب النزول: ص٢٠.

ولولا معرفة سبب النُّزولِ لتمسَّك الواهِمون بمثل قولهِ تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ والمَيْسِرِ قُلْ فيهِما إِثْمٌ كَبيرٌ وَمَنافِعُ لِلنّاسِ وَإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما﴾ [البقرة: ٢١٩] دليلاً على عدمِ حرمتِها لما فيها من المنافعِ.

فمن أجلِ ذلك يقول الواحدي في مقدمة كتابه (أَسباب النُّزولِ): «.. إذ هي – أي أَسباب النُّزولِ – أَولى ما يجبُ الوقوف عليه وأَوْلى ما تُصرَف العناية إليه، لامتناعِ معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصَّتها وبيان نزولِها»[1].

وقالَ ابن دقيق العيد: «بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن»[2].

إذاً فإنَّ «معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب».

رابعاً – اهتمام العلماء بالكتابة في «أَسبابِ النُّزولِ»:

نظراً لهذه الأهمية التي ذكرناها لمعرفة أَسبابِ نُزولِ الآيات ومناسباتها، اهتم الأئمة رحمهم الله بالكتابة فيها وتجميع الرِّواياتِ والأخبارِ المتعلِّقةِ بها، بل أخذ العلماءُ يفرِدون المؤلَّفات في هذا الموضوع حتى غدا «أَسبابُ النُّزولِ» اسم علمٍ مستقلٍّ برأسهِ من علومِ القرآنِ.

فأَقدم ما عرفنا ممن كتبَ في هذا الفنِّ المحدِّث علي بن المديني شيخ الإمام البخاري، (ت: ٢٣٤هـ).

---

[1] المرجع السابق: ص٤.

[2] الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٢٨/١) وينظر البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢٢/١).

وممَّن ألّف فيه، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت: ٤٦٨هـ).

ومنهم الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، وسمَّى كتابه (العجاب).

وأجمع المؤلفات كتاب (لباب النقول في أسباب النزول) للإمام جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)[1].

وبما أوضحناه لك من تدرّج القرآن في النُّزولِ، ونزول الكثير منه لأَسبابٍ ومناسبات، تعلَم أنَّ القرآن لم تنزل آياته على الرسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طبق هذا التَّرتيبِ الذي تراه، وهو التَّرتيبُ الذي كان في مكنونِ علمِ الله تعالى، وتنزَّل به جُملةً واحدةً إلى السماءِ الدُّنيا، وإِنَّما كان ينزل من ذلك ما تدعو إليه الحاجة ويتناسب مع تدرُّج التَّشريع، حتى تكامل كلّه.

[1] ينظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/٤٧).

أدوار جَمْعِ القُرْآن وكتابته

أَوَّلاً - كتابة القرآن في عهدِ رسولِ اللّهِ صلّى اللّهُ عليه وسلّم

ثانياً - ما جدَّ من ذلك في عهد أبي بكر رضي الله عنه

ثالثاً - ما جدَّ من ذلِكَ في خلافةِ عثمانَ رضي الله عنه

مرَّت كتابة القرآن الكريم بمراحل نوجزها فيما يلي:

أَوَّلاً – ترتيبُ القرآنِ وكتابته في عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

استغرق نُزولُ القرآنِ مِنَ الزَّمنِ ثلاثةً وعشرينَ عاماً، هي جملةُ العمرِ الذي تكاملَ فيه هذا الكتاب العظيم نزولاً وترتيباً بين سورِهِ وآياته: روى البخاري عَنْ عائِشَةَ، وابْنِ عَبّاسٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُمْ: «أَنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَبِثَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنينَ، يُنْزَلُ عَلَيْهِ القُرْآنُ وَبِالمَدينَةِ عَشْراً»[1].

فكيف تمَّ ترتيبُه وتنسيقُه بهذا الشَّكل، وهل كان ثمَّة من يكتبُ كلَّ ما ينزلُ منه في عهدِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟

أما التَّرتيبُ والتَّنسيقُ فإنَّ الأحاديث الواردة في هذا الشأْنِ تتَّفقُ على أنَّ

– ترتيبَ الآياتِ إلى جانبِ بعضها، حسبما عليه المصحف الآن، إنَّما هو ترتيبٌ توقيفيٌّ، لم يجتهد فيه رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولا أحدٌ من الصَّحابة في عهده أو من بعده، وإنَّما كان يتلقَّى ترتيبها إلى جانبِ بعضها وحياً من عند الله تعالى بواسطة جبريل عليه السلام.

روى الإمام أَحمدُ عَنْ عُثْمانَ بْنِ أَبي العاصِ، قالَ: كُنْتُ عِنْدَ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالِساً إِذْ شَخَصَ بِبَصَرِهِ ثُمَّ صَوَّبَهُ حَتَّى كادَ أَنْ يُلْزِقَهُ بِالأَرْضِ، قالَ: ثُمَّ شَخَصَ بِبَصَرِهِ فَقالَ: «أَتاني جِبْريلُ فَأَمَرَني أَنْ أَضَعَ هَذِهِ الآيَةَ

---

[1] البخاري في المناقب، باب صفة النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم (٣٥٤٧) ومسلم في الفضائل، باب في صفة النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم (٢٣٤٧). ويلاحظ أنَّ عائشةَ رضي الله عنها أَسقطتِ المُدَّة التي فَتَرَ فيها الوحي، وهي في بعض الأَقْوالِ ثلاثَ سنوات، ويقصده هذا الحديث.

بِهَذا المَوْضِعِ مِنْ هَذِهِ السّورَةِ: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ والإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذي القُرْبَى . . . ﴾ الآية [النحل: ٩٠]»[1].

وأَوردَ القرطبيُّ في تفسيرِه عنْ ابنِ عبّاسٍ قالَ: «آخَرُ ما نَزَلَ مِنَ القُرْآنِ: ﴿واتَّقوا يَوْماً تُرْجَعونَ فيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمونَ﴾ [البقرة: ٢٨١] فَقالَ جِبْريلُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا مُحَمَّدُ ضَعْها عَلَى رَأْسِ ثَمانينَ وَمِائَتَيْنِ مِنَ البَقَرَةِ»[2].

ورَوى البخاريُّ بسندِهِ عَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ: قُلْتُ لِعُثْمانَ: هَذِهِ الآيَةُ الَّتي في البَقَرَةِ ﴿والَّذينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرونَ أَزْواجاً وَصيَّةً لأَزْواجِهِمْ مَتاعاً إِلَى الحَوْلِ غَيْرَ إِخْراجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠] قَدْ نَسَخَتْها الأُخْرَى، فَلِمَ تَكْتُبُها؟ قالَ: «تَدَعُها يا ابْنَ أَخي، لاَ أُغَيِّرُ شَيْئاً مِنْهُ مِنْ مَكانِهِ»[3].

وبناءً على ذلك فقد تـمَّ إجماعُ العُلماءِ ومختلفُ المؤرِّخينَ والباحثين على أنَّ ترتيب آياتِ القرآنِ عملٌ توقيفي من الله عزّ وجلّ.

وما يُقالُ عن ترتيبِ الآيات، هو الذي يُقالُ أَيضاً في ترتيب السور ووضْعِ البسملة في الأوائل، قال القاضي أبو بكر بن الطيب – روايةً عن مكّي رحمه الله في تفسير سورة «براءة» –: إنَّ ترتيب الآيات في السورِ ووضعِ البسملة في

---

[1] مسند أحمد رقم (١٧٩١٧).

[2] الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٣٧٥)، وينظر البخاري في التَّفسير بابُ ﴿واتَّقوا يَوْماً تُرْجَعونَ فيهِ إِلَى اللهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

[3] البخاري في تفسيرِ القرآن، بابُ ﴿والَّذينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرونَ أَزْواجاً﴾ [البقرة: ٢٣٤] (٤٥٣٦).

الأوائلِ هو توقيفٌ من النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولما لم يؤمر بذلك في أوَّلِ سورةِ براءة تُرِكَتْ بلا بسملة.

يَقولُ القُرطبيُّ: ذَكَرَ ابْنُ وَهْبٍ في (جامِعِهِ) قالَ: سَمِعْتُ سُلَيْمانَ بْنَ بِلالٍ يَقولُ: سَمِعْتُ رَبيعَةَ يَسْأَلُ: لِمَ قَدَّمْتَ البَقَرَةَ وَآلَ عِمْرانَ، وَقَدْ نَزَلَ قَبْلَهُما بِضْعٌ وَثَمانونَ سورَةً وَإِنَّما نَزَلَتا بالمدينة؟ فقالَ ربيعةُ: قُدِّمَتا وَأُلِّفَ القُرْآنُ عَلَى عِلْمٍ مِمَّنْ أَلَّفَهُ[1].

إلّا أنَّه وقعَ بحثٌ بين علماءِ هذا الشأن في حكمِ من أحبَّ أنْ يرتب سور القرآن طبقاً لتاريخ نزولها لا لترتيبها الأَخير الذي يأمرُ به الرسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، هل هو عملٌ جائزٌ أَم لا؟ وليس لنا في هذا المجال غرض يتعلَّقُ بهذا البحث.

وأَمّا كتابته فأَنتَ تعلمُ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان أُميّاً لا يَقرأُ ولا يَكتبُ؛ أَجمعَ على ذلك عامّةُ المؤرِّخينَ والباحثين. قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَما كُنْتَ تَتْلو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتابَ الْمُبْطِلونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

إلّا أنَّه كان يعهدُ بكتابة ما يتنزَّل عليه من القرآنِ إلى أَشخاصٍ من الصَّحابةِ بأَعيانهم، كان يطلق عليهم اسم (كُتّاب الوحي)، وأشهرهم الخلفاء الأربعة، وأُبيُّ بنُ كعبٍ، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، والزُّبيرُ بن العوّام، وشرحبيل بن حسنة، وعبد الله بن رواحة[2].

---

[1] انظر تفسير القرطبي (١/ ٦٠).

[2] انظر فتح الباري: (١٨/٩).

وقد كانوا يكتبونَ القرآنَ فيما تيسرَ لهم من العِظامِ والسُّعفِ وألواحِ الحجارةِ الرَّقيقةِ. وقد كانوا يضعون هذا الذي يكتبونه في بيتِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثم يكتبون منه لأنفسِهم صوراً أُخرى يحفظونها لديهم[1].

فعمَلُ كُتّابُ الوحيّ في عهده صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يكنْ جمْعاً لكتابِ اللهِ تعالى بين دُفَّتيْن، وإنَّما كان مُجرَّد تسجيلٍ كتابيٍّ له على مُتفرِّقاتِ العِظامِ والحَجارةِ والأَوراقِ وغيرها، مع ترتيبِ سوَرِهِ وآياتِهِ حسب ما يوحى به إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

ولقد كانَ في الصَّحابةِ منْ يتتَّبعَ آياتِ القُرآنِ وترتيبها، فيَحفظُها عن ظهرِ قلبٍ، حتى حفِظوا بذلك القرآن كلَّه، فمن مشاهيرهم: عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأُبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت.

وكان سائر الصَّحابة يشتركون بحفظ مقادير كبيرة من القرآن، حسب ما يكون كتب منه لنفسه أو حسب ما يتيسَّر له. وظلَّ الصَّحابةُ يعكفون على حفظِ القرآن غيباً حتى ارتفعت نسبةُ الحفّاظِ منهم إلى عددٍ لا يُحصى، يدلُّك على ذلك ما يذكره الرّواةُ من أنَّ موقعةَ اليمامة التي وقعتْ في زمنِ أَبي بكرٍ رضي الله عنه قد قُتِلَ فيها سبعون صحابيّاً من حَفَظَةِ القرآنِ، وروى القرطبيُّ[2] أَنَّهم سبعمئةٍ – وهي رواية ضعيفة ولا شك – إلّا أَنَّك تستطيع أنْ تفهم من ذلك نسبةَ الصَّحابةِ الذين يحفظونَ القرآن في صدورهم.

---

[1] التَّحقيقُ أنَّ كتّابَ الوحي كانوا يضعون ما يكتبونه من القرآن في بيتِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. قال ذلك المُحاسبيُّ في كتابِ «فهمِ السُّننِ» وانظر البرهان للزركشي (٢٣٨/١) والإتقان للسيوطي (٥٨/١).

[2] انظر تفسير القرطبي: (٥٠/١).

ويتَّضحُ لك من هذا الذي ذكرناه أنَّ القرآن وعاه الصَّدرُ الأوَّلُ من الصَّحابةِ وبلَّغوه إلى من بعدهم بطريقتين:

إحداهما: الكتابةُ التي كانت تتمُّ بأمرِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأَشْخاصٍ بأَعيانهم وكلَ إليهم هذا الأمر.

الثّانية: حفظه في الصدور عن طريق التلّقي من كبار قرّاءِ الصَّحابةِ وحفّاظِهم الذين تلَقَّوه عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأقرَّهم على كيفية النُّطقِ والأَداءِ.

كما يتَّضحُ لكَ أَنَّ القرآنَ رغمَ ذلكَ لم يُجمَعْ في مصحفٍ على عهده صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والسَّببُ هو ضيقُ الوقتِ بين آخرِ آيةٍ نزلت منه وبين وفاته عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فقد علمت مما ذكرناه أنَّ الفترة بينهما لم تزد على تسع ليالٍ في أَكثر الرِّواياتِ وأقربها إلى الاعتماد.

ثانياً – ما جدَّ من ذلك في عهد أبي بكر رضي الله عنه:

قلنا إن القرآن كتب كله في عهد رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولكن متفرقاً دون أن يجمع في مصحف واحد بين دفتين كما هو اليوم

فلمّا توفي النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتولَّى الخلافةَ من بعده أبو بكر رضي الله عنه، ووقعت معركة اليمامة التي استشهد فيها – كما قلنا – عددٌ كبيرٌ من حَفَظةِ القرآنِ أَشارَ عمرُ بنُ الخطّابِ على أبي بكرٍ رضي الله عنهما بجمع القرآن وحِفظهِ بين دُفَّتينِ مخافةَ أنْ يموتَ أشياخ القرّاءِ كأُبيِّ بن كعبٍ، وابن مسعودٍ، فيختلف النّاسُ في قراءته إذ لا يكون عندهم إمامٌ يجمعون عليه.

ولننقل لك نصَّ ما رواهُ البخاريُّ في ذلك.

عـنْ زَيْـدِ بْـنِ ثابِـتٍ رَضـيَ اللهُ عَنْـهُ، قـالَ: «أَرْسَـلَ إِلَيَّ أَبـو بَكْـرٍ مَقْتَـلَ أَهْـلِ اليَمامَـةِ – أي عِنـدَما قُتِـلَ أَهـلُ اليَمامـةِ – فَـإِذا عُمَـرُ بْـنُ الخَطّـابِ عِنْـدَهُ»، قـالَ أَبـو بَكْـرٍ رَضـيَ اللهُ عَنْـهُ: إِنَّ عُمَـرَ أَتـاني فَقـالَ: إِنَّ القَتْـلَ قَـدْ اسْـتَحَرَّ يَـوْمَ اليَمامَـةِ بِقُـرّاءِ القُـرْآنِ، وَإِنِّي أَخْشَـى أَنْ يَسْـتَحِرَّ القَتْـلُ بِـالقُرّاءِ بِالمَـواطِنِ، فَيَـذْهَبَ كَثـيرٌ مِـنَ القُـرْآنِ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَـأْمُرَ بِجَمْـعِ القُـرْآنِ، قُلْـتُ لِعُمَـرَ: «كَيْـفَ تَفْعَـلُ شَـيْئاً لَمْ يَفْعَلْـهُ رَسـولُ اللهِ صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ؟» قـالَ عُمَـرُ: هَـذا واللهِ خَيْـرٌ، «فَلَـمْ يَـزَلْ عُمَـرُ يُـراجِعُني حَـتَّى شَـرَحَ اللهُ صَـدْري لِـذَلِكَ، وَرَأَيْـتُ في ذَلِـكَ الَّـذي رَأَى عُمَـرُ»، قـالَ زَيْـدٌ: قـالَ أَبـو بَكْـرٍ: إِنَّـكَ رَجُـلٌ شـابٌّ عاقِـلٌ لاَ نَتَّهِمُـكَ، وَقَـدْ كُنْـتَ تَكْتُـبُ الـوَحْيَ لِرَسـولِ اللهِ صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، فَتَتَبَّـعِ القُـرْآنَ فاجْمَعْـهُ، «فَـواللهِ لَـوْ كَلَّفـوني نَقْـلَ جَبَـلٍ مِـنَ الجِبـالِ مـا كـانَ أَثْقَـلَ عَلَـيَّ مِمّـا أَمَـرَني بِـهِ مِـنْ جَمْـعِ القُـرْآنِ»، قُلْـتُ: «كَيْـفَ تَفْعَلـونَ شَـيْئاً لَمْ يَفْعَلْـهُ رَسـولُ اللهِ صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ؟»، قالَ: هوَ واللهِ خَيْرٌ.

فَلَـمْ يَزَلْ أَبو بَكْـرٍ يُراجِعُني حَتَّى شَرَحَ اللهُ صَدْري لِلَّذي شَرَحَ لَهُ صَدْرَ أَبي بَكْـرٍ وَعُمَـرَ رَضـيَ اللهُ عَنْهُمـا، فَتَتَبَّعْـتُ القُـرْآنَ أَجْمَعُـهُ مِـنَ العُسُـبِ واللِّخـافِ، وَصُـدورِ الرِّجـالِ، حَـتَّى وَجَـدْتُ آخِـرَ سـورَةِ التَّوْبَـةِ مَـعَ أَبي خُزَيْمَـةَ الأَنْصـاريِّ لَمْ أَجِدْها مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ، ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] حَتَّى خاتِمَةِ بَراءَةَ، فَكانَتِ الصُّحُفُ عِنْدَ أَبي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفّاهُ اللهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَياتَهُ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ رَضيَ اللهُ عَنْهُ[1].

---

[1] البخاري في فضائل القرآن، بابُ جَمْعِ القُرْآنِ (٤٩٨٦).

فالجديد الذي أمر به أبو بكر رضي الله عنه، هو جمع ما تفرَّق من الرِقاع والعسب وغيرها، ثم استنساخها منها إلى صفحات مرتَّبة مجتمعات، تكون محفوظة في دار الخلافة ومرجعاً للمسلمين في كيفية القراءة والأداء.

إذاً لم يكن عمل زيدٍ عبارة عن مُجرَّد جمع تلك القطع المتناثرة إلى بعضها بخيطٍ، كما قد يتصوَّر بعضُ النّاسِ ويفهمه من كلمة «جمع القرآن» وقول أبي بكرٍ لزيد «فتتبّع القُرآنَ فاجْمَعْهُ». وإنَّما كانت مهمَّة زيدٍ التي وكلت إليه هي جمعُ هذه المُتفرِّقاتِ ثم الكتابة على مِنْوالِها من جديدٍ.

يدلُّ على ذلك ما رواه ابن أَشتة في (كتاب المصاحف) عن اللَّيثِ بنِ سَعْدٍ قال: أَوَّلُ من جمعَ القرآن أبو بكرٍ، وكتَبَه زيدٌ.

وأكَّد ذلك الحارثُ المحاسبيُّ في كتابه (فهم السنن).

ويؤكِّد ذلك ما رواه ابنُ أبي داود من طريق هِشامِ بنِ عُروةَ عن أَبيهِ عروة بن الزُّبيرِ أنَّ أبا بكرٍ قال لعمرَ ولزيدٍ: اقعد على بابِ المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيءٍ من كتابِ الله، فاكتباه[1].

وإذا وقفتَ على النَّهجِ الذي كان يسيرُ عليه زيدٌ رضي الله عنه في الاستيثاق من الآية عند كتابتها، أَدركْتَ مدى الدِّقةِ العَظيمةِ التي امتدت مع المراحل التّاريخيَّةِ المختلفة لكتابةِ القرآن وجمْعِهِ، فقد كان لا يكتب منَ القرآن آية إلّا بشاهدين يجتمعان عليها من حيث اللَّفظِ والأداءِ، وهما الحفظ والكتابة، رغم أَنَّه كان هو نفسه في مقدِّمةِ حفّاظِ القرآن غيباً، فكان في غِنىً عن أنْ يحمِّلَ نفسه هذا الجهد، ولكن الورع في الدّينِ والحيطة في النَّقلِ حمَلاه على أن يضَعَ

[1] انظر الإتقان: (٥٨/١)، وفتح الباري : (١١/٩)، وقال: ورجاله ثقات.

نفسه – من أَجلِ أنَّه هو الذي تولَّى الكتابة – في الموضعِ الأخيرِ بعد عامَّةِ الصَّحابةِ.

وهذا المنهجُ الشَّديدُ الذي اتَّبعَهُ زيدٌ، هو الذي يفسِّر لك معنى قوله أَنَّه لم يجدْ الآياتِ الأخيرةِ من سورة التَّوبةِ إِلّا مع أَبي خُزيمةَ الأَنْصاريِّ، فليس معنى كلامه هذا أنَّه اعتمدَ في كتابتها على خبرِ الواحدِ فقط وهو أَبو خزيمة، وإِنَّما هو مزيدُ في الحيطة منه، فهو لا يكتفي مما يكتب أَيضاً إِلّا بالذي كان داخلاً منه تحت إِشْرافهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وتولَّى كتابته أحدُ كتّابِ الوحي أنفسهم. فمنْ أجلِ ذلك ظلَّ متوقِّفاً عن تسجيلِ هذه الآيات رغمَ حفظه لها ورغم وجودها في صدور عامّةِ الصَّحابةِ إِلى أنْ عثرَ لها على الشّاهدِ الثّاني أَيضاً وهو الكتابة الموثوقة الصحيحة.

قال أَبو شامة[1]: «إِنَّما كانَ قصدُهم أَنْ يَنْقلوا مِنْ عينِ المكتوبِ بين يَدي النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يَكتبوا مِنْ حفظهم»

قال: «ولذلك قال في آخر سورة التوبة لم أجدها مع أحدٍ غيره» – أي غير أبي خزيمة الأنصاري – أي لم أجدها مكتوبة مع غيره، لأنه كان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة.

ثالثاً – ما جدَّ من ذلِكَ في خلافةِ عثمانَ رضي الله عنه:

بقي الأَمرُ على قام به أبو بكرٍ رضي الله عنه، مدَّة خلافتهِ، ثم مدَّةَ خلافةِ عمرَ رضي الله عنه، وفي صدرٍ من خِلافةِ عثمانَ رضي الله عنه. إِلّا أَنَّه حدثَ

---

[1] في المرشد الوجيز إلى علوم تتعلَّق بالكتاب العزيز (١/ ٥٧ و٤٩) وانظر الإتقان: (٥٨/١)، وفتح الباري: (١٢/٩).

بعدَ ذلك أمرٌ نبَّه المسلمين إلى ضرورةِ وجودِ نُسخٍ متعدِّدةٍ من هذا المصحف الإمام الذي اعتمده الخُلفاء، لتوزيعها في الأَمْصارِ وجَمْعِ النّاسِ عليها، كي لا يكون للعُجمَةِ واللهجاتِ المختلفة سبيلٌ إلى اختلاف النّاسِ في القِراءةِ أَو إلى تحريفِ شيءٍ من القرآنِ لفظاً أو أَداءً.

ولننقل لك مرَّةً أَخرى ما رواه البُخاريُّ بسنَدِهِ[1] في ذلك: (عَنْ ابْنِ شِهابٍ، أَنَّ أَنَسَ بْنَ مالِكٍ، حَدَّثَهُ: أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ اليَمانِ، قَدِمَ عَلَى عُثمانَ وَكانَ يُغازي أَهْلَ الشَّأْمِ في فَتْحِ أَرْمينيَةَ، وَأَذْرَبيجانَ مَعَ أَهْلِ العِراقِ، فَأَفْزَعَ حُذَيْفَةَ اخْتِلاَفُهُمْ في القِراءَةِ، فَقالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمانَ: يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ، قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفوا في الكِتابِ اخْتِلاَفَ اليَهودِ والنَّصارَى، فَأَرْسَلَ عُثْمانُ إِلَى حَفْصَةَ: «أَنْ أَرْسِلي إِلَيْنا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُها في المَصاحِفِ، ثُمَّ نَرُدُّها إِلَيْكِ»، فَأَرْسَلَتْ بِها حَفْصَةُ إِلَى عُثْمانَ، فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثابِتٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، وَسَعيدَ بْنَ العاصِ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الحارِثِ بْنِ هِشامٍ فَنَسَخوها في المَصاحِفِ.

وَقالَ عُثْمانُ لِلرَّهْطِ القُرَشيّينَ الثَّلاَثَةِ: «إِذا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثابِتٍ في شَيْءٍ مِنَ القُرْآنِ فاكْتُبوهُ بِلِسانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّما نَزَلَ بِلِسانِهِمْ» فَفَعَلوا حَتَّى إِذا نَسَخوا الصُّحُفَ في المَصاحِفِ، رَدَّ عُثْمانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفٍ مِمّا نَسَخوا، وَأَمَرَ بِما سِواهُ مِنَ القُرْآنِ في كُلِّ صَحيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ).

وإنَّك لتدركُ من هذا النَّص أنَّ هنالك فَرقاً من ثلاثةِ وجوهٍ بين ما فعله عثمانُ رضي وما كان قد فعلَهُ من قبلِه أبو بكر رضي الله عنه.

---

[1] في فضائل القرآن، بابُ جَمْعِ القُرْآنِ (٤٩٨٧).

الأَوَّلُ: أن السبب فيما فعله عثمان إنَّما هو ما رآه من اختلاف بعض المسلمين في قراءة القرآن، من أثر اتساع الفتوحات ودخول عددٍ كبيرٍ من الأعاجم في الإسلام، يدلُّك على ذلك ما قاله حذيفةُ بنُ اليمان رضي الله عنهما وقد أفزعه ما رآه من بادرة الاختلاف في قراءة القرآن، وهذا ما حمل عثمان رضي الله عنه على جمع المهاجرين والأنصار وجلّة أهل الإسلام وشاورهم في الأمر، فاتفقت كلمتهم على استنساخ عددٍ من المصاحف من الأصلِ المعتمد واطراح ما سواها، عن عمير بن سعيدٍ قال عليٌّ رضي الله عنه: لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان.

أمّا ما فعله أبو بكرٍ فإنَّما كان ذلك بسببِ مصْرَعِ كثيرٍ من حفّاظ القرآن، كما قد رأَيْتَ[1].

الثّاني: اعتمد عثمانُ رضي الله عنه في كتابةِ المصاحفِ على لجنةٍ مكوَّنةٍ من أَربعةِ أشخاصٍ من كبار القرّاء والحفّاظِ، من بينهم (زيدُ بنُ ثابتٍ).

أمّا الجمع الأوَّل فقد اعتمد فيه أبو بكرٍ – كما قد رأيت – على زيدِ ابنِ ثابتٍ فقط، ولعلّ سببَ هذا الفرق مضاعفة الجهد هنا بسببِ كتابة نسخٍ متعدِّدة.

الثالث: الصُّحفُ التي جُمِعتْ في المرَّةِ الأولى، إنَّما كان المراد منها أنْ تبقى في دارِ الخِلافةِ مُعْتَمَداً ومَرْجِعاً للدَّولةِ، إذ لم يكن في البال ما تسرَّب إلى بعض الألسنةِ أخيراً من الاختلاف في قراءةِ القرآنِ بسبب شيوع العُجمةِ واتِّساعِ الرقعة الإسلاميَّةِ.

---

[1] انظر تفسير القرطبي: (١/٥٢)، و(٥)، والبرهان (١/٢٣٠).

أما الكتابة الثّانية زمن عثمان فإنَّما أُريدَ منها اعتمادها ثم توزيعها في الأمصار لتتوحَّد القراءة على أَساسها.

إلّا أنَّ الباحثين اختلفوا في عددِ المصاحِفِ التي استنسخها، والرّاجِحُ الذي عليه أكثرُهم أَنَّها سبْعةُ مصاحفَ، استَبقى واحداً منها عنده – وهو الذي سمي بـ(المصحف الإمام) – ووزَّعَ سائرها على (الكوفة، والبصرة، والشام، واليمن، ومكة، والبحرين)[1].

ثم إنَّك إذا تأمَّلت في قصَّة هذا الجمع الثّاني وقفت على حقيقتينِ لا بدَّ من إدْراكِهما:

الأولى: ترتيبُ نُسخِ المصحفِ التي نسخت بأَمْرِ عثمانَ ورسمه إنَّما كان على نسقِ ما كتبه زيدُ بنُ ثابتٍ في الجمع الأَوَّلِ، إذ إنَّ الصُّحفَ التي اعتمدَ عليها إنَّما كانت – كما علمت – من كتابةِ زيد، بعد أن أمرَه كلٌّ من أبي بكرٍ وعمر بذلك، وزيدُ بن ثابتٍ هذا هو من أَشهَرِ الصَّحابةِ ضبطاً للقرآنَ وحفظِه، وهو صاحبُ العرضةِ الأخيرةِ للقرآن على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قُبيلَ وفاته، فأقرَّه الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأمر النّاسَ بأخذ القرآنِ عنه، ومن هنا قطع كافَّةُ العلماء والباحثين بأنَّ هذه النُّسخِ التي وزّعها عثمان في الأَقطارِ هي الصّورةُ المحقَّقة الدقيقة للقرآنِ الذي نزل على رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والذي كان يُتلى به.

الثّانية: أنَّ القرآن إنَّما نزل بلهجة قريشٍ فينبغي أنْ يُكتَبَ أيضاً برسمهم وطريقة كتابتهم، تفهم ذلك من قولِ عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: «إذا

---

[1] البرهان: (٢/٢٤٠).

اختلفتم أَنتُم وزيد بن ثابت في شيءٍ من القرآنِ – أَي إملاءً ولهجةً – فاكتبوه بلسانِ قريشٍ، فإِنَّما نزل بلسانهم».

وقد تمَّ هذا العملُ العظيمُ الذي قام به عثمانُ بنُ عفانَ رضي الله عنه في عام (٢٥ هـ). أمّا ما قام به أبو بكرٍ رضي الله عنه فقد كان بعدَ موقعة اليمامةِ في العام الثّاني عشرَ للهجرة (١٢هـ).

وما هو إِلّا أنْ توزَّعت هذه النُسخ التي كتبت بأمر عثمانَ في البلدان الإسلامية حتى أَحرقَ كلُّ امرئٍ ما كان عنده من قبل. وأقبلوا يعكفون على استنساخ المصاحف من هذه الأُصولِ الوثيقة المعتمدة، إلى جانب تلقّيها مشافهةً من كبارِ القرّاءِ الذين كان يبعثهم عثمان رضي الله عنه إلى الأَمصارِ ليتلقَّى النّاسُ منهم كتاب الله عزّ وجلّ.

هذا ونستطيع أنْ نقطع بأنَّ واحداً من المصاحف العثمانية كان باقياً في دمشق بمسجد بني أمية الكبير حتى القرن الثامن الهجري، حيث يقول ابن كثير في كتابه (فضائل القرآن)[1]: وأمّا المصاحفُ العثمانيَّةُ الأَئمةُ فأشهرُها — اليوم – الذي في الشّامِ بـ(جامعِ دمشق) عند الرُّكْنِ، شرقي المقصورة المعمورة بذكرِ اللهِ، وقد كان قديماً بمدينة طبرية، ثم نُقِلَ منها إِلى دمشق في حدودِ ثماني عشرة وخمسمئة، وقد رأَيْتُهُ كِتاباً عَزيزاً جَليلاً عَظيماً ضَخْماً بخطٍّ حسنٍ مبين قويٍّ بحبرٍ مُحكَمٍ، في رقٍّ أظنُّه من جلودِ الإِبلِ – والله أعلم – زاده الله تشريفاً وتعظيماً وتكريماً.

[1] فضائل القرآن لابن كثير (ص: ٨٩).

أما بعد ذلك، فالحديث عن تحقيق هذه النُّسخِ ونقلِها بين المكتبات والمتاحف والبلدان، أمرٌ يطول ولسنا بصدد هذا البحث.

فإذا تأمَّلت في هذه الخلاصة التي سردناها من تاريخ هذا الكتاب العظيمِ، منذ نزوله على قلب المصطفى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى وصوله إلينا اليوم من حيث الأَدوارُ التي تدرَّج فيها كتابةً وجمعاً، وتلقيّاً ودَرْساً – تصوَّرت أنَّك من هذا الكتاب المبين أمام شمسٍ واضحةٍ مُشْرِقَةٍ تسير أمام عينيك في قبَّة السماء الصّافية، ليس حولها مزقة سحابٍ تغشي عليها وليس بينك وبينها أي زوبعةٍ أو ضبابٍ يحجبها عنك.

سلسلة متَّصلةٌ من التَّدوينِ الكِتابيِّ الدقيق، والتَّلقي الشَّفهيِّ السليم، يسيران جنباً إلى جنبٍ في مطابقةٍ واتفاقٍ، منذ بزوغِ فجر هذا التَّنْزيل إلى هذه الساعةِ من يومنا هذا، لا ترى فيها حلقةً مفقودةً أو ثغرةً ينفذ منها الشَّك أَو اختلافاً يبعثُ على الرّيبةِ.

فأيُّ خبرٍ أو كتابٍ سار خلال القرون في مثل هذا النَّفقِ المُحكَمِ العجيب من الحِفْظِ والوقاية؟ اللهمّ إنَّ العقلَ لا يفهم من ذلك إلّا أَنَّه تصديق الدَّهرِ والقرون لقولهِ تعالى: ﴿إِنّا نَحْنُ نَزَّلنا الذِّكْرَ وَإِنّا لَهُ لَحافِظونَ﴾ [الحجر: ٩] وقوله تعالى: ﴿لا يَأْتيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

رَسْمُ القُرْآنِ ونقطه

مما لا شكَّ فيك، أنَّ الصُّحفَ التي كانت قد كُتِبَتْ على عهدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمصاحفَ العُثمانيَّةَ التي وزِّعتْ على الأَمْصارِ، كانت كلها خالية عن الشَّكلِ والنَّقْطِ، وكان العرب إذ ذاك يهتدون إلى النُّطقِ السَّليمِ بوسيلتين:

إحداهما: السَّليقةُ العربيَّةُ الأصيلة التي كانوا يتمتَّعون بها، والأَصالةُ اللُّغوية التي كانت فطرتهم مطبوعة عليها، فلم يكن لِما عُرِفَ بعد ذلك باسم (**اللَّحْنِ**) أي سبيلٍ إلى ألسنتهم، وليس لديهم أي فقرٍ في فهم المعنى الصَّحيحِ للفظ من الأَلفاظِ العَربيَّةِ أو في الشَّكلِ السَّليمِ للنُّطْقِ بها.

الثّانية: التَّلقي والمشافهة، وقد قُلْنا إنَّ القرآنَ كان يُضبَطُ ويُحفظُ، بكلٍّ من وسيلتي الكتاب والتَّلَقي، فلا الكتابة وحدها كانت معتَمداً كافياً لهم، ولا التَّلَقي وحده كان أساساً معتَمداً عندهم، بل الأمرُ إنَّما يعتمِدُ على كِلا الوسيلتين.

فكان التَّلَقي يزيد من وضوح الكتابةِ، ويُزيلُ ما قد يُتَصوَّر من اللَّبس في النُّطق ببعض الكلماتِ، كتلك التي تحتمل عدداً من وجوه الأداءِ والقراءة، بسببِ عدم توفُّرِ النَّقطِ فيها، على أنَّ رُخصةَ النُّطقِ بالأَحرُفِ السَّبعةِ في أوَّل عهدِ العربِ بالقرآنِ ساهمت باعتبارها وسيلة ثالثة في تسهيلِ ضبطِ القرآن دراسةً وحفظاً، وأَوْرَثت طمأنينةً بعدم الوقوع في أي لَبْسٍ أو وهمٍ، عند النُّطقِ بهذه الكلماتِ المُحتملةِ.

ومما لا ريب فيه أَيضاً، أنَّ رسمَ المصاحفِ العُثمانيةِ التي نُسِخَتْ على هدي الصُّحفِ الأوْلى يقوم على إِملاءٍ خاصٍّ به في ذلك العصر وفيما بعده أيضاً.

وإنَّك لتجدُ في إمْلائهِ من أَنْواعِ الزّياداتِ والحذفِ للحروف والمدود وطريقةِ الرَّسمِ، ما لم يكن مَعْهوداً حتى عند كثيرٍ من القبائلِ العَربيَّةِ إذْ ذاكَ.

إلّا أَنَّه كان يتَّفقُ في جملتهِ مع الرَّسمِ القُرشيِّ في ذلك الوقت، ومن هنا قال عُثمانُ رضي الله عنه للكاتبين: إذا اختلفتُم أنتم وزيدُ بنُ ثابتٍ في كلمةٍ منَ كلماتِ القرآنِ، فاكتبوها بلسانِ قريشٍ، فإنَّ القرآنَ أُنزِلَ بلسانِهم.

ولقد ظهرَ تطبيقُ هذه الوصيَّة، عندما اختلفَ الكتّابُ الأَربعةُ في كيفية رسمِ «التّابوت» في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ الآية [البقرة: ٢٤٨]، فقد قال زيد: «التّابوه». وقال القرشيون: «التّابوت». وترافعوا إلى عثمانَ فقال: اكتبوا «التّابوت» فإِنَّما أُنْزِلَ القرآنُ على لسانِ قريشٍ[1].

فقد علمتَ إذاً، أنَّ في رسمِ القرآنِ في عهدهِ الأَوَّل، ظاهرتين:

الظّاهِرةُ الأوْلى: أَنَّ له إملاءً خاصّاً به من حيث كيفيَّةُ كتابةِ الهمزةِ مثلاً، أو الأَحرُفِ اليائيَّةِ والواويَّةِ، ومن حيث الزّيادةُ والنَّقصُ وما شابه ذلك.

الظّاهِرة الثّانية: أَنَّه كان مُجرَّداً عن الشَّكلِ الذي يوضِّحُ إعْرابهُ، وعن النَّقطِ الذي يُميِّزُ الأَحرُفَ المُعجمةَ عن المُهمَلةِ.

فأَمّا الظّاهِرة الأوْلى: فقد استمرَّت فيما بعد، ولم يطرأ عليها تغييرٌ أو تحويرٌ يُذكر، فقد أخذَ النّاسُ يعتبرونَ الرَّسمَ القرآني رسماً معيَّناً خاصّاً به، ولم يجدوا ما يدعو إلى مدِّ يد التغيير إليه، بعد أنْ وصلَ إليهم بهذا الشَّكل صورةً طبقَ الأصلِ للكَتْبةِ المعتمدة الأوْلى، بل لقد رأى العلماءُ أنَّ الحيطةَ في حفظِ القرآن تدعو

---

[1] البرهان: (٣٧٦/١)، والإتقان: (٩٨/١).

إلى وجوبِ إبقائه على شكلِه الأَوَّل، وتحريم أو تكريه أي تطويرٍ كتابيٍّ فيه، تطبيقاً للقاعدة الشرعية الكبرى (**سدّ الذَّرائع**).

روى أبو عَمرٍو الدّانيُّ[1] عن أشهب، قال: «سُئلَ مالكٌ رحمه الله: هل يُكتبُ المصحَفُ على ما أَحدثَ النّاسُ من الهِجاءِ؟ فقال: لا، إلّا على الكَتْبَةِ الأوْلى».

وسُئل مالكٌ مرَّةً أُخرى عن الحروفِ في القرآنِ مثل (الواو) و(الألف): «أَترى أنْ تغيَّرَ من المصحفِ إذا وجدوا فيه ذلك؟ فقال: لا»[2].

وذهبَ أحمدُ بنُ حنبلَ رحمه الله إلى أنَّه تحرمُ مخالفةُ خطِّ مصحفِ عُثمانَ في (ياء) أو (واو) أو (أَلِفٍ) أو غير ذلك[3].

وليس يعنينا هنا، أن نَعْرِضَ لتحقيق الحكم الشرعي في هذا الأمر، خصوصاً في مجالات التَّعليمِ والتَّدريسِ، إنَّما الذي نقصد إليه هو أن نتأَمَّل في مدى الحيطة والشدَّةِ العجيبتين اللَّتَينِ صيْنَ بهما القرآنُ خلالَ تاريخ وصولهِ إلينا.

أما **الظّاهِرة الثّانيةُ**: فقد دخلها التَّطويرُ والتَّحسينُ فيما بعد، كما نجد أثر ذلك في رسمِ المصاحفِ في عصرنا هذا.

---

[1] المحكم في نقط المصاحف (ص: ١١)

[2] المقنع في رسم مصاحف الأمصار (ص: ٣٦) وقد أَوضح الداني رحمه الله ذلك بقوله: "يعني الواو والألف الزائدتين في الرسم لمعنى المعدومتين في اللَّفظ نحو (الواو) في (أُولئك) و(أولى) و(أولات).

[3] انظر البرهان: (٢٧٩/١).

نقط المصحف:

وأصحُّ ما قيل عن تاريخ أَوَّلِ طورٍ تحسينيٍّ دخل رسمَ القرآنِ، أَنَّه كان في عهد التّابعينَ في منتصفِ القرنِ الأَوَّلِ للهجرة، وأصحُّ ما قيل فيمن باشر ذلك أَنَّه (**أبو الأسود الدؤلي**) الذي توفي عام تسع وستين. فقد أَجمعت رِواياتُ الثِّقاتِ – كما يقول المرحوم مصطفى صادق الرافعي[1] – على أنَّ أَبا الأسودِ الدُّؤليّ هو أَوَّل من وضع النَّحوَ بإشارةٍ من سيدنا عليٍّ بنِ أَبي طالبٍ رضي الله عنه.

ولعلَّك تقولُ: فما علاقة وَضْعِ النَّحوِ بتحسين رسمِ القرآن؟

وهل يلزم من أنَّ أبا الأسود الدؤلي هو الواضعُ للنَّحو أنْ يكونَ هو أَوَّلُ مباشرٍ لتحسين الرَّسمِ القرآني؟

والجـــواب: إنَّ عامّةَ روايات هؤلاء الثِّقات تتَّفقُ على أنَّ سبب وَضْعِه النَّحوَ هو ما رآه أو قيل له من شيوعِ اللَّحنِ في قراءةِ القرآن، كما تتَّفِقُ معظمُ هذه الرِّواياتِ – ومنها روايةُ أَبي الطَّيبِ اللُّغويّ وابنِ النَّديمِ وابنِ عساكر – على أنَّ وَضْعَهُ للنَّحوِ كان مَصْحوباً بنَقْطِ المصحفِ[2].

ولعلَّ الرِّوايةَ التي ساقها ابنُ خلِكانَ[3] تجمعُ القدرَ المشترك بين مُختلَفِ تلك الرِّواياتِ، وإليك ما يقولُه في ذلك:

---

[1] ينظر تاريخ آداب العرب: (١/ ١٥٥).

[2] انظر وفيات الأعيان: (١/ ٢٤٠)، وانظر كتاب «النَّحو العربي» للأستاذ الدكتور مازن المبارك ص (١٠٠ – ٢٩) فقد عرض فيه لتحقيق واسع فيما روي من خبر أَوَّلِ واضع للنَّحو، وقارن بين مختلف الرِّوايات في ذلك.

[3] في كتابه وفيات الأعيان (٢/ ٥٣٧).

قيلَ لأَبي الأسودَ: من أينَ لك هذا العلم – يعنون النحو –؟ فقال: لُقِّنْتُ حدودهُ من عليِّ بنِ أَبي طالبٍ رضي الله عنه.

كان (أي: الدُّؤليّ) لا يُخرجُ شيئاً أَخَذهُ عن عليِّ بنِ أَبي طالبٍ رضي الله عنه إِلى أَحدٍ، (يقصد به الرقعة التي كان قد أعطاه إياها وفيها قواعد أَوَّلية للنَّحو) حتَّى بعثَ إِليهِ زياد (أي: ابن أَبيه والي العراق يومئذ): أن اعمل شيئاً يكون للناس إماماً ويعرف به كتاب الله عز وجل، فاستعفاه من ذلك، حتى سمع أبو الأسود قارئاً يقرأ: (إِنَّ اللهَ بَريءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَرَسولِهِ)، بالكَسرِ، فقال: ما ظَنَنْتُ أَنَّ أَمْرَ النّاسِ آلَ إِلى هذا، فرجعَ إِلى زياد فقالَ: أَفعَلُ ما أَمرَ به الأَميرُ، فليَبْغِني كاتباً لَقِناً يفعلُ ما أَقولُ لهُ، فأتي بكاتبٍ من عبدِ القَيْسِ فلم يرْضهُ، فأُتيَ بآخرَ، فقالَ له أبو الأَسود: «إِذا رأَيْتَني قد فتحتُ فمي بالحرف فانقُطْ نقطةً فوقهُ، وإِنْ ضممتُ فمي فانقُطْ بين يدي الحرف، وإِنْ كسَرتُ فاجعل النُّقطَةَ من تحت» ففعل ذلك[1].

فإذا تأمَّلت في هذا الخبر – وهو كما قلت لك قدر مشترك للروايات التي ساقها ابن عساكر وابن النديم وأبو الطيب اللُّغوي – علمت أن الذي بدأ بتحسين رسم القرآن هو أبو الأسود الدؤلي، وعلمت أن هذا التحسين هو وضع النَّقْطِ للقرآن؛ وأنه لم يكن يقصد به تمييز الحروف المهملة عن المعجمة كما هي وظيفة النَّقْطِ فيما نعلم، وإِنَّما كان يُراد به الشَّكل الذي يقوم مقام الفتح والكسر والضم منعاً عن اللَّحْن في القراءة، وعلمت أيضاً أَنَّه إِنَّما وضع النَّحو من حيث نقَّط القرآن وأن الذي دفعه إلى وضع النَّحو وتقعيد قواعده وإبراز

---

[1] وفيات الأعيان: (٢٢/٤٠).

الرقعة التي كان قد أعطاه إيّاها علي بن أبي طالب، هو ما أفزعه من سماع اللَّحْنِ في تلاوة القرآن.

ولعلك تسمع بعد هذا، عن روايات تقول بأن يحيى بن يَعْمُر (ت: ١٢٩هـ) هو أَوَّل من نقط القرآن، أو أن الذي بدأ بذلك هو نصر بن عاصم الليثي (ت: ٨٩هـ). وهي في الحقيقة لا تنافي ما نقلناه، فقد كان كلٌّ من يحيى بنِ يَعْمُر ونصرِ بنِ عاصمٍ تلميذين لأبي الأسود الدؤلي، وقد كان يحيى بن يعمر قاضياً بمرو، فلعله عمد فنقط مُصحَفه على نحو ما فعل أستاذه، قبل أن يفعل ذلك هناك أحد غيره، وأَمّا عمل نصر بن عاصم فهو في أغلب الظن إِنَّما يعتبر طوراً آخر من التحسين بعد العمل الذي قام به أبو الأسود، تدلُّ على ذلك الرواية التي ساقها ابن خلكان، إذ يقول (ثم كثُرَ التَّصحيفُ وانتشر بالعراق؛ ففزِعَ الحجّاجُ بن يوسفَ إلى كتّابه، فسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات، فيقال إن نصر بن عاصم قام بذلك)[1]. فأنت ترى أن الحجاج إِنَّما أمر كتّابه أن يعملوا شيئاً تتميز به الحروف المشتبهة في القرآن، والحروف المشتبهة إِنَّما هي المهملة والمعجمة كالحاء والجيم والعين والغين. فيكون عمل نصر بن عاصم إن صحّت الرواية تنقيطاً، لتمييز المُتَشابهِ من الحروف لا لضبط الشَّكل والإعراب كما فعل أبو الأسود.

ثم إن هذا التحسين الذي ذكرناه، دخل طوراً ثانياً، بل أخذ يتدرَّج في أطوار متلاحقة، لا يمكننا أن نضبط كلّاً منها بتاريخ دقيق صحيح، كما لا يمكن أن ننسبه إلى شخص معين في رواية موثوقة.

---

[1] انظر المرجع السابق: (١/١٣٥).

ولكن مما لا شكَّ فيه أن للحجّاج عمَلاً عظيماً في ذلك بقطع النَّظرِ عن تفاصيل ما قام أو أمر به كما يقول الدكتور صبحي الصالح[1].

ومِمّا لا شكَّ فيه أَيضاً أن النَّقْطَ والشَّكلَ تكامل وجودهما في القرآن على عهدِ الخليلِ بنِ أحمدَ (ت: ١٧٠هـ) عندما ألّفَ كتابه في النَّقْطِ والشَّكلِ[2].

واستمرَّت الخطوات التحسينية في رسمِ القرآن في اطِّرادٍ إلى يومنا هذا، ابتغاء تحقيق المزيد من ضبطه وتسهيل قراءته. إلّا أنَّ الظّاهِرةَ الأوْلى المتعلِّقة بإملائه بقيتْ – كما ترى – على الشَّكلِ الذي كُتِبَتْ به الصُّحف الأوْلى والمصاحف العثمانية.

ومن هذا الذي ذكرناه يتَّضِح لك أن علم النَّحو لم يُقعَّد ويدوّن إلّا خدمةً لضبط القرآن – كما قد رأيت – وستجد فيما بعد أنَّ معظم العلوم العَربيَّة الأخرى إنَّما قامت لخدمة القرآن أو نبعت من مضمونه.

---

[1] انظر كتاب مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح: ٩٧.

[2] وفيات الأعيان: (١/١٧٢).

الأَحْرُفُ السَّبْعةُ

تعريف الأَحرُف السَّبْعة

بيان الأَحرُف السَّبْعة في الحديث النبوي

دلالة هذه الأحاديث على أصول الموضوع

الأَحرُف السَّبْعة والقِراءات السَّبْع

ما هي حقيقة الأَحرُف السَّبْعة

أين الأَحْرُف السِّتَّة ؟

يجدُ الدّارسُ لهذا الموضوعِ في دراستهِ هنا تطبيقاً لأَصلٍ عظيمٍ من الأُصولِ التي جاءتْ بها الشَّريعةُ، وهو مُراعاةُ اليُسْرِ على النّاسِ، ورَفْعُ العسْرِ والمشقَّةِ عنهم، وموضع اليُسْرِ هنا هو أَنْ يُسهِّلَ على العربِ أَخْذَ كتابِ اللهِ تعالى، والاهتداء بِهُداه.

تعريف الأَحرُف السَّبْعة:

الحرف لغة: الحرف في أصل كلام العرب معناه الطرف والجانب، وحرف السفينة والجبل جانبهما، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١] أي أن من النّاسِ من لا يدخلُ في الدّيْنِ دخولَ متمكِّنٍ، فإنْ أَصابهُ خيرٌ – أي خِصْبٌ – وكثُرَ مالُه اطمأنَّ بهِ، ورضيَ بدينهِ، وإنْ أَصابتْه فتْنةُ اختبارٍ بِجَدْبٍ وقلَّةِ مالٍ انقلبَ على وجهه – أي رَجَعَ عَنْ دينِهِ إلى الكفْرِ وعِبادَةِ الأَوْثانِ[1]–.

الأَحرُف السَّبْعة اصطلاحاً:

«سبعةُ أَوْجُهٍ فَصيْحَةٍ مِنَ اللُّغاتِ والقِراءاتِ أُنْزِلَ عَلَيْها القُرآنُ الكَريمُ».

بيان الأَحرُف السَّبْعة في الحديث النبوي:

ولما كانَ سبيلُ درْسِ هذا الموضوع هو النَّقلُ الثّابتُ الصَّحيحُ من الذي لا ينطِقُ عنِ الهوى، ولا مجالَ للرَّأي والاجتهاد فيه إلّا لِحُسْنِ الفَهْمِ، والتَّرجيحِ بينَ

[1] من تفسير الزجاج وقال بنحوه ابن قتيبة في كتابه «تأويل مشكل القرآن» ص ٢٧ – ٢٨.

الآراءِ، فإنّا نُقَدِّمُ نخبةً مِنَ الأَحاديثِ الثّابتةِ تُلْقي لنا الضَّوْءَ على هذا الموضِعِ فيما يلي:

الحديث الأول: عَنْ عُمَرَ بْنَ الخَطّابِ رضي الله عنه ، قالَ: سَمِعْتُ هِشامَ بْنَ حَكيمِ بْنِ حِزامٍ، يَقْرَأُ سورَةَ الفُرْقانِ في حَياةِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاسْتَمَعْتُ لِقِراءَتِهِ، فَإِذا هوَ يَقْرَأُ عَلَى حُروفٍ كَثيرَةٍ، لَمْ يُقْرِئْنيها رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكِدْتُ أُساوِرُهُ في الصَّلاَةِ، فَتَصَبَّرْتُ حَتَّى سَلَّمَ، فَلَبَّبْتُهُ بِرِدائِهِ، فَقُلْتُ: مَنْ أَقْرَأَكَ هَذِهِ السّورَةَ الَّتي سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ؟ قالَ: أَقْرَأَنيها رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: كَذَبْتَ، فَإِنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَقْرَأَنيها عَلَى غَيْرِ ما قَرَأْتَ، فانْطَلَقْتُ بِهِ أَقودُهُ إِلَى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: إِنّي سَمِعْتُ هَذا يَقْرَأُ بِسورَةِ الفُرْقانِ عَلَى حُروفٍ لَمْ تُقْرِئْنيها، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَرْسِلْهُ، اقْرَأْ يا هِشامُ» فَقَرَأَ عَلَيْهِ القِراءَةَ الَّتي سَمِعْتُهُ يَقْرَأُ، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ»، ثُمَّ قالَ: «اقْرَأْ يا عُمَرُ» فَقَرَأْتُ القِراءَةَ الَّتي أَقْرَأَني، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ إِنَّ هَذا القُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فاقْرَءوا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ»[1].

الحديث الثاني: عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قالَ: كُنْتُ في المَسْجِدِ، فَدَخَلَ رَجُلٌ يُصَلّي، فَقَرَأَ قِراءَةً أَنْكَرْتُها عَلَيْهِ، ثُمَّ دَخَلَ آخَرُ فَقَرَأَ قِراءَةً سِوَى قَراءَةِ صاحِبِهِ، فَلَمّا قَضَيْنا الصَّلاةَ دَخَلْنا جَميعاً عَلَى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: إِنَّ هَذا قَرَأَ قِراءَةً أَنْكَرْتُها عَلَيْهِ، وَدَخَلَ آخَرُ فَقَرَأَ سِوَى قِراءَةِ صاحِبِهِ،

---

[1] أخرجه البخاري في فَضائِلِ القُرْآنِ، بابُ أُنْزِلَ القُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ (٤٩٩٢)، مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب بيانِ أنَّ القُرْآنَ على سبعةِ أَحرفٍ (٨١٨)

فَأَمَرَهُما رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَرءا، فَحَسَّنَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَأْنَهُما، فَسَقَطَ في نَفْسي مِنَ التَّكْذيبِ، وَلا إِذْ كُنْتُ في الجاهِلِيَّةِ، فَلَمّا رَأَى رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما قَدْ غَشيَني، ضَرَبَ في صَدْري، فَفِضْتُ عَرَقاً وَكَأَنَّما أَنْظُرُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَرَقاً، فَقالَ لي: «يا أُبَيُّ، أُرْسِلَ إِلَيَّ أَنِ اقْرَأِ القُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثّانيَةَ اقْرَأْهُ عَلَى حَرْفَيْنِ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثّالِثَةَ اقْرَأْهُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَلَكَ بِكُلِّ رَدَّةٍ رَدَدْتُكَها مَسْأَلَةٌ تَسْأَلُنيها، فَقُلْتُ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتي، اللهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتي، وَأَخَّرْتُ الثّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إِلَيَّ الخَلْقُ كُلُّهُمْ، حَتَّى إِبْراهيمُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». أخرجه مسلم[1]

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه أَيْضاً، أَنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ عِنْدَ أَضاةِ بَني غِفارٍ، قالَ: فَأَتاهُ جِبْريلُ عَلَيْهِ السَّلامُ، فَقالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ القُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَقالَ: «أَسْأَلُ اللهَ مُعافاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتي لا تُطيقُ ذَلِكَ»، ثُمَّ أَتاهُ الثّانيَةَ، فَقالَ: «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ القُرْآنَ عَلَى حَرْفَيْنِ»، فَقالَ: «أَسْأَلُ اللهَ مُعافاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتي لا تُطيقُ ذَلِكَ»، ثُمَّ جاءَهُ الثّالِثَةَ، فَقالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ القُرْآنَ عَلَى ثَلاثَةِ أَحْرُفٍ، فَقالَ: «أَسْأَلُ اللهَ مُعافاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتي لا تُطيقُ ذَلِكَ»، ثُمَّ جاءَهُ الرّابِعَةَ، فَقالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتُكَ القُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَأَيُّما حَرْفٍ قَرَءوا عَلَيْهِ فَقَدْ أَصابوا. أخرجه مسلم[2].

---

[1] مسلم في صلاة المسافرين، بابُ بيانِ أنَّ القُرآنَ على سَبْعةِ أَحْرُفٍ (٨٢٠).

[2] مسلم في صلاة المسافرين، بابُ بيانِ أنَّ القُرآنَ على سَبْعةِ أَحْرُفٍ (٨٢١).

الحديث الثالث: عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُما: أَنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالَ: «أَقْرَأَني جِبْريلُ عَلَى حَرْفٍ، فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزيدُهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ». متفق عليه[1].

الحديث الرابع: ولمسلم[2] عنِ ابْنِ شِهابٍ: «بَلَغَني أَنَّ تِلْكَ السَّبْعَةَ الأَحْرُفَ إِنَّما هيَ في الأَمْرِ الَّذي يَكونُ واحِداً، لا يَخْتَلِفُ في حَلالٍ وَلا حَرامٍ».

دلالة هذه الأحاديث على أصول الموضوع:

دلَّتِ هذهِ الأَحاديثُ على جملةِ قواعد هامَّة نوضِّحُها فيما يلي:

١ – ثبوتُ التَّوسِعةِ في إِنْزالِ القُرآنِ على سبعةِ أَحرُفٍ ثبوتاً قاطِعاً، نظراً لصحةِ أَسانيد الأحاديثِ الواردةِ في القضيَّةِ صحَّةً جازمة، بل إِنَّ الحديثَ بلغَ درجة التَّواتُرِ الذي يُفيدُ اليَقينَ، لكثرةِ أَسانيدِه ورواتِه من الصَّحابةِ فمَنْ بعدَهم.

٢ – إِنَّ القِراءَةَ بأيِّ حرفٍ من هذهِ الأَحْرُفِ يلزمُ فيها اتِّباعُ التَّلقي عن النّبيِّ صلى الله عليه وسلم.

وأول ما يدلُّ على ذلك هذا التَّعبيرُ (أُنْزِلَ) الذي تواترت به الأحاديث، فإنَّه يدلُّ على أنَّه نزل به الوحي.

ويدلُّ على ذلك أَيضاً دلائلُ كثيرة في نصوص الأحاديث، مما يدلُّ على أنَّ المعيارَ في قبول الحرفِ أو ردِّه ليس هو عدمُ أُلْفَتِهِ من السّامِعِ، ولا كونه لهجة

---

[1] البخاري في فضائلِ القُرْآنِ، باب ذكر الملائكة (٣٢١٩) ومسلم في صلاة المسافر وقصرها، بابُ بيانِ أنَّ القُرآنَ على سَبْعةِ أَحْرُفٍ (٨١٩).

[2] مسلم في صلاة المسافر وقصرها، بابُ بيانِ أنَّ القُرآنَ على سَبْعةِ أَحْرُفٍ (٨١٩).

غير مألوفةٍ له، إنَّما الأَساسُ في الموضوعِ كلِّه هو السَّماعُ والتَّلقي عنْ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أو عدمِ التَّلقي عنه.

ومما يدلُّ على بُطْلانِ تفويضِ القِراءةِ للقارئ بما يَخْتارُه من تِلْقاءِ نفسِه أنَّ ذلكَ يؤدّي إلى ذهابِ إِعْجازِ القُرْآنِ وتعريضه لأنْ يُبدَّل، وذلك خلاف قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

ثمَّ إنَّ التَّغييرَ والتَّبديلَ بِمُرادفٍ أو بغيرِ مُرادفٍ مَرفوضٌ بقولِه تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ، قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥] فإذا كانَ هذا ليس من حقِّ النَّبيِّ نفسِه صلى الله عليه وسلم، فكيفَ يَسوغُ ذلكَ في حقِّ أَحدٍ من النّاسِ؟ ولِهَذا قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في الحديثِ السّابقِ «هَكَذا أُنْزِلَتْ».

٣ - تُثْبِتُ عبارات الأحاديثُ المفصّلةُ الواردة في الأَحرُف السَّبْعة أَصْلاً هامّاً يجب أنْ لا يغيبَ عن بالِ الباحثِ في تفسيرِ الأَحْرُفِ السَّبعةِ، وهو أنَّها وجوهٌ في أَداءِ الأَلْفاظِ فقطْ، أي كيفيات في القِراءَةِ.

وجه الدّلالَةِ على ذلك أنَّ الخلافَ بين الصَّحابةِ في القِراءةِ إنَّما وقع حول قِراءَةِ الأَلْفاظِ، ولم يكن اختلافٌ في تفسيرِ المعاني، انظُر إلى قولِ عُمرَ بنِ الخطّابِ رضي الله عنه: «فَإِذا هوَ يَقْرَأُ عَلَى حُروفٍ كَثيرَةٍ، لَمْ يُقْرِئْنيها رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، وهكَذا سائرُ العِباراتِ تُشيرُ إلى أنَّ القضيَّةَ كانتْ تَدورُ حَوْلَ كيفيَّةِ قِراءَةِ الأَلْفاظِ، لا تَفسير المعاني.

الأَحرُف السَّبْعة والقِراءات السَّبْع:

دلَّتنا النُّصوصُ التي درسناها ومحَّصْنا دلالاتها على أنَّ المرادَ بـ(الأَحرُفِ السَّبعةِ) سبع لُغات نزل بها القُرْآنُ، ونودُّ أن ننبِّهَ بأنَّ الأَحرُفَ السَّبْعة ليستْ هي القِراءاتُ السَّبْعُ المَشْهورةُ، التي يظنُّ كثيرٌ مِنْ عامَّةِ النّاسِ أَنَّها الأَحرُفُ السَّبْعةُ، وهو خطأٌ عظيمٌ ناشِئٌ عن الخَلْطِ وعدمِ التَّمييزِ بينَ الأَحرُف السَّبْعةِ والقِراءاتِ.

وهذه القِراءاتُ السَّبْعُ إِنَّما عُرِفَتْ واشتهرتْ في القرنِ الرّابعِ، على يدِ الإِمامِ المُقْرِئ (ابْنِ مُجاهِدٍ) الذي اجتَهدَ في تأليفِ كتابٍ في القِراءاتِ، فاتَّفقَ له أَنْ جاءتْ هذِه السَّبْعة موافِقةً لعددِ الأَحْرُفِ، فلو كانت الأَحرُفُ السَّبْعةُ هي القِراءاتُ السَّبْعُ لكانَ معنى ذلك أنْ يكونَ فهمُ أَحاديثِ الأَحرُفِ السَّبْعةِ والعمَلُ بها مُتَوَقِّفاً حتى يأتي ابنُ مجاهدٍ ويُخْرِجُها للنّاسِ وقَدْ كَثُرَ تنبيهُ العُلَماءِ في مُخْتَلفِ العُصورِ على التَّفريقِ بينَ القِراءاتِ السَّبْعِ والأَحرُفِ السَّبْعةِ، والتَّحذير من الخَلْطِ بينها[1].

ما هي حقيقة الأَحرُف السَّبْعة:

إِذا بحثنا بعد هذا عن حقيقةِ الأَحرُفِ السَّبْعةِ بدقَّةٍ نجدُ أَمامَنا مَذاهِبَ تَجتهِدُ في تفسيرِ المرادِ بهذِه الأَحْرُفِ، تحاولُ تبيينَ الاختلافِ في كيفيَّةِ أَداءِ أَلْفاظِ القُرْآنِ على الأَوجهِ السَّبْعةِ التي نزلَ بها القُرْآنُ، ولعلَّ هذا الخِلاف أنْ يكونَ مُسْتَغْرَباً مع اتِّفاقِ أَصْحابِ هذا المنهج على أنَّ المرادَ بالأَحرُفِ السَّبْعةِ (سَبْعَةُ أَوْجهٍ في قِراءَةِ القُرْآنِ)، وسَبَبُ هَذا الاختلاف، هو اختلاف الطريقة التي توْصِلُ إِلى تَحديدِ هذهِ الأَحْرُفِ:

---

[1] انظر كلماتهم في كتاب النشر (٣٦/١ و٣٩ و٤٠ و٤٦) وفتح الباري (٢٥/٩).

ذهبَ بعضُ العُلَماءِ إلى استخراجِ الأَحرُفِ السَّبْعةِ باستقراءِ أَوْجهِ الخلافِ الواردةِ في قِراءاتِ القُرْآنِ كلِّها صحيحها وشاذِّها، ثم تصنيف هذه الأَوْجهِ سبعةَ أَصْنافٍ.

وذهبَ آخرونَ إلى التماسِ الأَحرُفِ السَّبْعةِ في لُغاتِ العربِ.

فتكوّن بذلك مَذْهَبانِ رئيسيان، نذكرُ نَموذجاً عنْ كلٍّ منهما فيما يلي:

المذهب الأول:

مذهبُ استقراءِ أَوْجُهِ الخِلافِ (في لُغاتِ العربِ، وفي القِراءاتِ كلِّها) ثم تصنيفها، وقد تعرَّض هذا المذهبُ للتَّنقيحِ على يدِ أَنْصارِهِ الذين تتابعوا عليه، وخُلاصَتُه تصنيفُ الإِمامِ الرّازي، نسوقُهُ فيما يلي:

قالَ أبو الفضلِ عبدُ الرحمنِ الرّازي: «فمِنَ التَّأْويلاتِ التي يحتملها الخبرُ ولم يتقدَّم على نِظامه تأويلٌ هو أنَّ كلَّ حرفٍ من الأَحرُفِ السَّبْعةِ المنزلة جِنْسٌ ذو نوعٍ مِنَ الاختلافِ».

– أَحدها: اختلاف أَوزانِ الأَسماءِ من الواحدِ والتثنية والجموع والتذكير والمبالغة وغيرها.

ومِنْ أَمثِلَتِه: ﴿والَّذينَ هُمْ لأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعونَ﴾ [المؤمنون: ٨] وقُرِئَ (لأَمانَتِهِمْ) بالإِفْرادِ.

– والثاني: اختلافُ تصريفِ الأَفْعالِ وما يسند إليه، نحو الماضي والمستقبل والأَمْر، وأَنْ يسند إلى المذكر والمؤنث والمُتكلِّم والمخاطب والفاعل والمفعول به.

ومِنْ أَمثِلَتِه: ﴿فقالوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا﴾ [سبأ: ١٩] بصيغَةِ الدُّعاءِ، وقرئ: (رَبَّنا بَعِّدْ) فِعْلاً ماضياً.

- الثالث: وجوه الإعراب.

ومِنْ أَمثِلَتِه: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢] قُرِئَ بِفَتْحِ الرّاءِ وَضَمِّها.

﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥] بِرَفْعِ (المَجيد) وجَرِّهِ.

- الرابع: الزيادة والنقص.

مثل: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ [الليل: ٣] قُرِئَ (والذكَر والأُنْثى).

- الخامس: التقديم والتأخير.

مثل: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]، قُرئ: (فَيَقْتُلونَ وَيُقْتَلونَ).

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩]، قُرِئَ: (وَجاءَتْ سَكْرَةُ الحَقِّ بِالمَوْتِ).

- السادس: القلب والإبدال في كلمةٍ بأُخْرى، أَو حرفٍ بآخَرَ.

مثل: ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] بالزّاي، وقُرِئ: (نَنْشُرُها) بالرّاءِ.

- السابع: اختلاف اللُّغاتِ.

مثل: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى﴾ [النَّازِعات: ١٥] تُقْرَأُ بالفَتْحِ والإِمالَةِ في (أتى) و(موسى).

وغير ذلك من ترقيقٍ وتفخيمٍ، وإِدْغامٍ ... وهكذا ...

ثم قال أَبو الفَضْلِ الرَّازيُّ: « ... فهذا التَّأْويلُ مما جمَع شواذَّ القِراءاتِ ومَشاهيرها، ومناسيخها على موافقة الرَّسم ومخالفتِه، وكذلك سائر الكلام لا ينفكُّ اختلافه من هذه الأجناسِ السَّبْعةِ المتنوّعة، فإِنْ وافقَ هذا التَّأويلُ معنى

الخبر – أَي حديثَ الأَحرُفِ السَّبْعةِ – حَذْواً بِحَذْوٍ فقد أصابَ من أخذَ به، وإنْ لم يوافقه فلا شكَّ في دخولِ معنى الخبر تحتَ هذهِ الوجوه، وإنْ لم يكن مُرتَّباً عليها»[1].

المذهب الثاني:

إنَّ المراد بالأَحرُفِ السَّبْعةِ سبعُ لُغاتٍ من لُغاتِ قبائل العربِ الفصيحةِ، وذلك لأنَّ المعنى الأَصليَّ للحرفِ هو اللُّغةُ، فأنزلَ القُرْآنُ على سبعِ لُغاتٍ مُراعياً ما بينها من الفوارقِ التي لم يأْلَفْها بعضُ العربِ، فأنزلَ اللهُ القُرْآنَ بما يألفُ ويَعرِفُ هؤلاء وهؤلاء من أَصْحاب اللُّغاتِ، حتى نزلَ في القُرْآنِ من القِراءاتِ ما يسهلُ على جلِّ العربِ إنْ لم يكن كلهم، وبذلك كان القُرْآنُ نازِلاً بلسانِ قريشٍ والعربِ – كما قالَ الإمامُ البُخاريُّ في صَحيحِهِ[2] –.

وقال جماعةٌ من العُلَماءِ: إنَّ هذه اللُغات هي لُغات: (قريش، وهذيل، وتميم، وأزد، وربيعة، وهوازن، وسعد بن بكر)[3].

والحاصِلُ أنَّ هذين المذهبين أَقوى ما قيل في تفسيرِ حقيقةِ الأَحرُفِ السَّبْعةِ، ولا خِلافَ بينهما في النتيجةِ، لأنَّ:

أَحدهما : يُبيِّنُ أَوْجُهَ الاختلافِ.

والثاني: ما تنطبقُ عليه هذه الأَوْجُه من لُغاتِ العربِ.

---

[1] الأَحرُف السَّبْعة في القُرْآن: ص ١٠٠، نَقْلاً عن كتابِ أبي الفضل الرّازي نفسه، وانظر فتح الباري (٩/ ٢٣ – ٢٤) ومناهل العرفان (١/١٤٩).

[2] في كتاب فضائل القُرآن، فقد بوَّب بقوله: (بابُ نَزَلَ القُرْآنُ بِلِسانِ قُرَيْشٍ والعَرَبِ وَقَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ [يوسف: ٢]، ﴿بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

[3] البرهان (١/٢١٧).

وهما يُحقِّقانِ ما وردتْ به الأحاديثُ من نزولِ القُرْآنِ على سبعةِ أَحرُفٍ يُقْرَأُ بِها.

أين الأَحْرُف السِّتَّة ؟

ذلك ما تبين بالأدلَّةِ من حقيقةِ الأَحرُفِ السَّبْعةِ، والقول الصحيح فيها، فأَينَ هي الأَحرُفُ السَّبْعةُ، وهل ما يقرأ به المسلمون من القِراءاتِ اليوم يشتمل على الأَحرُفِ السَّبْعةِ ويحقِّقها، أو أنه حرفٌ واحدٌ، وأين هي الستة الباقية إذن؟

يرى المحقِّقونَ في هذا الموضوع –كالإمام الباقلاني وغيره – أنَّ الأَحرُفَ السَّبْعةَ باقيةٌ، وأنَّ المصاحفَ العثمانية – التي استنسخها عثمان بن عفان رضي الله عنه – قد اشتملت على الأَحرُفِ السَّبْعةِ جميعاً.

وهذه عبارات الإمام المحقق أبي بكر الباقلاني تلقي الضوء ساطعا على القضية، قال رحمه الله ورضي عنه: «إنَّ عُثْمانَ لم يقصد قصد أبي بكر في جمع نفس القُرْآن بين لوحين، وإِنَّما قصد جمعهم على القِراءات الثابتة المعروضة على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، وإلغاء ما لم يجرِ مجرى ذلك، وأخذهم بمصحفِ عثمان لا تقديم فيه ولا تأخير، ولا تأويل أثبت مع تنزيل ولا منسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه ... »[1].

« ... لأنَّ القومَ عندنا لم يختَلِفوا في هذهِ الحروفِ المشهورةِ عن الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم التي لم يَمتْ حتَّى عُلِمَ من دينِهِ أنَّه أَقرأَ بها، وصوَّب المختلفين فيها، وإِنَّما اختلفوا في قراءاتٍ ووجوهٍ أُخَر لم تثبتْ عن الرَّسولِ عليه الصَّلاة

---

[1] الانتصار للقرآن، للباقلاني (٦٥/١)، وانظر البرهان (٢٣٥/١) وشرح صحيح مسلم للنووي (١٠٠/٦).

والسَّلام، ولم تقم بها حجَّة، وكانت تجيء مجيء الآحاد وما لا يعلم ثبوته وصحَّته، وكان منهم من يقرأُ التَّأويلَ مع التَّنْزيلِ، نحو:

قوله: (﴿والصَّلاةُ الوسْطى﴾ وَهيَ صَلاةُ العَصْرِ)[1].

(﴿فَإِنْ فاؤُ﴾ فيْهِنَّ)[2].

(﴿ولَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ في مَواسِمِ الحَجِّ)[3] ...

فمَنعَ عثمانُ مِنْ هذا الذي لم يثبتْ ولم تقمْ الحجَّةُ به، وأَحرَقهُ، وأَخذَهم بالمتعيِّنِ المعلومِ من قِراءاتِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ...»[4].

---

[1] أصل الآية ﴿حافِظوا عَلَى الصَّلَواتِ والصَّلاةِ الوُسْطى وقوموا لِلَّهِ قانِتينَ﴾ وورد عن بعض الصحابة زيادة «وهي صلاة العصر»، وهي قِراءَة تفسيرية، وقد ثبت عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم تفسيرُ الصَّلاةِ الوسطى أَنَّها صلاةُ العصرِ.

[2] الآية أَصْلُها في المرأةِ يَخْلِفُ زَوْجُها لا يقربها: ﴿فَإِنْ فاؤُ فَإِنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ﴾ وقِراءَة (فيهِنَّ) تفسيرية.

[3] الآية في بيان بعض أحكام الحج، وجواز تعاطي التجارة ونحوها للمحرم بالحج، وقوله «في مَواسِمِ الحجِّ» تفسير ليس من الآية.

[4] الانتصار للقرآن، للباقلاني (١/٣٥١).

القِراءاتُ والقُرّاءُ

تعريف القِراءَة

ضوابط القِراءةِ المقبولةِ

أنواع القِراءات حسب أسانيدها

القِراءات المتواترة وقراؤها

القِراءاتُ الشّاذّةُ

تعريف القِراءَة:

القِراءَة لغةً: مصدرٌ لِقَرأ.

وفي الاصطلاح: «القِراءاتُ عِلْمٌ بكيفياتِ أَداءِ كَلِماتِ القُرْآنِ واختِلافِها بعَزْوِ النّاقِلَةِ»[1].

وقولهم: (كلمات القُرْآنِ) أي كلمة كلمة من أوَّلِ القُرْآنِ إلى آخره، ببيان ما يندرج تحت قاعدةٍ عامَّةٍ، وما هو حالة خاصَّةٌ. مثل السكوت اللطيف على ﴿عِوَجاً﴾ من الكهفِ.

وقولهم: (بعزو الناقلة) أي أن هذا العلم ثابتٌ بالنَّقلِ الثابت المتواترِ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، لا مصدرَ له سوى النَّقل والتَّلقينِ الشِّفاهي.

و(**المقرئ**): العالم بالقِراءاتِ، الذي رواها مشافهةً بالتَّلقي عن أَهْلِها إلى أنْ يبلُغَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، فلو حفِظَ كتاب «التَّيسيرِ» في القِراءات مَثلاً فليس له أنْ يقرأَ بما فيه إنْ لم يشافهه من شوفهِ به مُسَلْسَلاً، لأنَّ في القِراءاتِ أشياء لا تُحْكَمُ إلّا بالسَّماعِ والمُشافهةِ[2].

ضوابط القِراءةِ المقبولةِ:

ولَـمَّا كان النَّقلُ بعزوِ النّاقلةِ يختلفُ قوَّةً وضَعْفاً بحسب حالِ النَّاقِلةِ، فقد احتاجَ الأمرُ إلى ضوابط تتميز بها القِراءَة المقبولة وغير المقبولة.

وقد نصَّ علماءُ القِراءات على قاعِدةٍ مشهورةٍ متَّفقٍ عليها بينهم في تحديدِ القِراءةِ المقبولةِ وهي:

---

[1] منجد المقرئين لابن الجزري ص ٣. وانظر تعريفاً آخر في مناهل العرفان (١/٤٠٥).

[2] منجد المقرئين ص ٣.

«كُلُّ قِراءَةٍ وافَقَتِ العَربيَّةَ وَلَوْ بِوَجْهٍ، وَوافَقَتْ رَسْمَ أَحَدِ المَصاحِفِ وَلَو احتِمالاً، وَصَحَّ سَنَدُها فَهيَ القِراءَةُ الصَّحيْحةُ»[1].

ويتبيَّنُ من هذه القاعدة ثلاثةُ ضوابطَ يتوقَّف قبول القِراءَة على اجتماعِها كلِّها وهي:

الضّابطُ الأَوَّلُ: موافَقةُ العَربيَّةِ وَلَوْ بِوَجْهٍ

ومعنى هذا الضّابط أنْ تكونَ القِراءَة موافقة لِوجْهٍ من وجوه النَّحو، ولو كان مُختَلِفاً فيه اختِلافاً لا يَضرُّ مثله، فلا يصحُّ مَثلاً الاعتراضُ على قِراءَةِ حَمزة: ﴿واتَّقوا اللهَ الذي تَسائَلونَ بِهِ والأَرْحامِ﴾ بجرِّ (الأَرْحامِ) بأنَّه عَطْفٌ على الضَّميرِ المَجرورِ بدونِ إعادةِ الجارِّ، وهوَ خِلافُ مذهبِ البَصريِّنَ، لأنّا نَقولُ: إنَّ الكوفيِّنَ يُجيزونَ مثل هذا العطف، وهَكَذا ..

الضّابِطُ الثاني: موافَقةُ خَطِّ أَحدِ المَصاحِفِ وَلَوْ احتِمالاً

وذلِكَ أنَّ النُّطقَ بالكلمةِ قد يوافِق رسم المُصحَفِ تَحْقيقاً إذا كانَ مُطابِقاً للمَكْتوبِ، وقد يوافِقُه احتمالاً أَو تَقْديراً باعتبارِ ما عَرَفْنا أنَّ رَسْمَ المُصحفِ له أُصولٌ خاصَّةٌ به تسمحُ بِقِراءَتِهِ على أَكْثرِ مِنْ وَجْهٍ.

مثالُ ذلكَ: (مالِكِ يَوْمِ الدّيْنِ) رُسِمَتْ (مَلِك) بدونِ أَلِفٍ في جميعِ المَصاحفِ، فمَنْ قَرأَ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدّينِ﴾ بدونِ ألفٍ موافقٌ للرَّسمِ تَحْقيقاً، ومن قَرأَ: (مالِكِ) فهوَ موافقٌ تَقْديراً، لِحَذْفِ هذِهِ الأَلِفِ مِنَ الخَطِّ اختِصاراً.

---

[1] النشر بتصرف يسير (٩/١).

الضّابِطُ الثّالثُ: صحَّةُ السَّندِ

وهو أَنْ يَرْوِيَ القِراءَة عَدْلٌ ضابِطٌ عَنْ مِثْلِهِ إِلى رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ غَيْرِ شُذوذٍ ولا عِلَّةٍ.

ويُشتَرَطُ في هذهِ القِراءَة أَنْ تَنالَ ثقةَ أَئمَّةِ القُرّاءِ الضّابطينَ، بِحيث تَكونُ مَشْهورةً لَدَيْهِمْ مُتلقّاةٍ بالقَبولِ عِنْدَهُم.

وقدْ يَسألُ مَنْ لم يَتَمَعّن حَقيقةَ المَسْأَلَةِ:

كيفَ يَكفي لِقَبولِ القِراءَةِ صحَّةَ السَّندِ معَ أنَّ القُرْآنَ لاَ يثبُتُ إِلّا بالتَّواتُرِ؟.

والجـــواب عن هذا السؤال من أَوْجُهٍ كثيرةٍ نكتفي منها بوجهٍ هوَ أنَّ القِراءَة ثابتةٌ بنقلِ أهل المنطقة كلِّهم، لكن بحكمِ قانونِ الانتخابِ الطبيعي يوجَدُ أَفرادٌ يفوقون أهلَ عصرهم، حتى يكونوا مَرْجِعاً لهم، وكذلك شأْنُ هؤلاء القُرّاءِ، فإِنَّ السَّندَ وإِن اتَّصلَ بخبرٍ صحيحٍ ظاهِراً، لكنَّه متواترٌ في الحقيقةِ، لذلك قالوا: يُشتَرَطُ أَنْ تنالَ ثقةَ الأئمةِ وتكونَ مشهورة بينهم.

أنواع القِراءات حسب أسانيدها:

وبالنَّظرِ لما ذكرناه فقد قسّموا القِراءات بحسب أَسانيدِها ستَّة أَقْسامٍ، وبيَّنوا حُكْمَ كلِّ نوعٍ ودرجته من حيث القبولُ أو الرَّد، وهذه الأقسام هي:

الأول – المتواتر: وهو ما نقله جمعٌ غفيرٌ لا يُمكِنُ تواطؤهم على الكذبِ عن مثلِهم إلى منتهى السَّندِ، وهذا النَّوعُ هو غالبُ القِراءاتِ.

الثاني – المشهور: وهو ما صحَّ سندُه، واستوفى شروطَ القِراءَة الصَّحيحةِ، واشتهرَ عند القرّاءِ فلم يعدّوه من الغلطِ ولا من الشُّذوذِ، وهذا تصحُّ القِراءَةُ به، ولا يجوزُ ردُّه، ولا يَحلُّ إِنْكارُه.

الثالث – الآحاد: وهو ما صحَّ سندُه وخالفَ الرَّسمَ أو العربيَّةَ، أو لم يشتهر الاشتهارَ المذكور، وهذا لا تجوز القِراءَةُ به.

الرابع – الشّاذ: وهو ما لم يصحَّ سنده ولو وافق رَسْمَ المصَحفِ والعربيَّة، مثل قِراءَة: (مَلَكَ يومَ الدّينِ) بصيغةِ الماضي في (مَلَكَ) ونصب (يَوْمَ) مَفْعولاً.

الخامس – الموضوع: وهو المختلقُ المكذوب.

السادس – ما يشبه المدرج من أنواع الحديث: وهو ما زيدَ في القِراءَةِ على وجهِ التَّفسيرِ، كما نُقِلَ عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما أنَّهُ قرأ (وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يأْخُذُ كَلَّ سَفينَةٍ صالِحَةٍ غَصْباً)، فكلمة (صالِحَةٍ) ليستْ قُرْآناً، إنَّما هي تفسيرٌ.

وهذه الأنواعُ الثَّلاثةُ الأخيرةُ لا تحلُّ القِراءَة بها، بالأَحرى والأَوْلى إذا كانت قِراءَةُ الآحادِ لا تجوزُ القِراءَة بها، ويُعاقَبُ مَنْ قَرأَ بها.

القِراءات المتواترة وقراؤها:

تلقَّى الصحابةُ القُرْآنَ من النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، وقرأَتْ كلُّ قبيلةٍ القُرْآنَ كما تعلَّموه منه صلى الله عليه وسلم، ثمَّ خرجت كلُّ قبيلةٍ في الفتوحاتِ في كتيبةٍ أَو كتائب مجتمعة إلى بعضها، واستقرَّت في البِلادِ تقرأُ قراءَتها، ويتَلقّاها الأبناءُ عن الآباءِ فكان لكلِّ بلدٍ أو قطرٍ قراءتُه المتواترةُ جيْلاً عن جيلٍ.

وكان من الضَّروريِّ والطبيعيِّ أن يشتهرَ في كلِّ عصرٍ جماعةٌ من القُرّاءِ، في كلِّ طبقةٍ من طبقاتِ الأمَّةِ، يتفوَّقونَ في حفظِ القُرْآنِ وإتقانِ ضبطِ أَدائهِ، والتَّصدي والتَّفرُّغ لتعليمهِ، من عصرِ الصَّحابةِ، ثم التّابعينَ، وأَتْباعهم، وهكذا.

وكانَ من القّرّاءِ من بلغَ الذُّروةَ في الإتْقانِ والضَّبْطِ، كما كان ثمَّة قُرّاءٍ دونهم، وآخرون ليسوا من أَهلِ الإتْقانِ، فقام العُلَماء بتمحيصِ هذه القِراءات ودراسَةِ أَحْوالِها، وبيَّنوا للنّاسِ المُتواتِرَ منها.

وبَدْءاً من عصرِ التّابعينَ انتشرت القِراءاتُ كثيراً، فشعرت طائفةٌ من أَهلِ العلمِ بضرورةِ الاحتياطِ للقرآنِ وقِراءاتِه، فنهضَ كلُّ إمامٍ بضبطِ القِراءَةِ عن الأئمَّةِ المُقرئينَ وهكذا في العصورِ التّاليةِ، ثم أودِعتْ تلك القِراءاتُ في مؤلَّفاتٍ خاصَّةٍ، كما فعلَه أَبو عبيدَة ثم الطَّبريُّ ومن جاء بعدُ ...

ثم جاءَ الإمامُ أحمدُ بنُ موسى بنِ العبّاسِ المشهورُ بـ(ابنِ مُجاهدٍ) (ت: ٣٢٤هـ)، فأَفردَ القِراءاتِ السَّبْعِ المعروفةِ فدوَّنها في كتابِهِ «السبعة في القِراءات» فاحتلَّت مكانتَها في التَّدوينِ وأصبحَ علمُها مُفْرداً يقصدُها طلّابُ القِراءاتِ.

وقد بنى اختيارَه هذا على شروطٍ عاليةٍ جدّاً، فلم يأخذ إلّا عن الإمامِ الذي اشتهرَ بالضَّبطِ والأَمانةِ، وطولِ العمرِ في مُلازَمةِ الإقْراءِ، مع الاتِّفاقِ على الأَخْذِ منه، والتَّلقي عنه، فكانَ له من ذلكَ قِراءاتُ هؤلاءِ السَّبْعةِ، وهم:

١ – عبدُ اللهِ بنُ كَثيرٍ الدّاريُّ المكيُّ (ت: ١٢٠ هـ).

٢ – عبدُ اللهِ بنُ عامِرٍ اليَحصُبيُّ الشّاميُّ (ت: ١١٨ هـ).

٣ – عاصمُ بنُ أَبي النُّجودِ الأَسديُّ الكوفيُّ (ت: ١٢٧ هـ).

٤ – أَبو عَمْرٍو زَبّانُ بنُ العَلاءِ البَصْريُّ (ت: ١٥٤ هـ).

٥ – حمزةُ بنُ حبيبٍ الزَّياتُ الكوفيُّ (ت: ١٥٦ هـ).

٦ – نافعُ بنُ عبدِ الرَّحمنِ بنِ أَبي نُعَيْمٍ المدنيُّ (ت: ١٦٩ هـ).

٧ – أَبو الحسنِ عليُّ بنُ حمزةَ الكِسائيُّ النَّحويُّ الكوفيُّ (ت: ١٨٩ هـ).

وقد تابعَ العُلَماءُ البحثَ لتحديدِ القِراءاتِ المتواتِرةِ، حتى استقرَّ الاعتمادُ العِلْميّ واشتهرَ على زيادةِ ثلاثِ قِراءاتٍ أُخرى، أُضيفتْ إلى السَّبعِ فأَصبَحَ مجموعُ المتواترِ من القِراءاتِ عشر قِراءاتٍ، وهذه القِراءاتُ الثَّلاثُ هي قِراءاتُ هؤلاءِ الأئمةِ:

٨ – أَبو جعفرٍ يزيدُ بنُ القَعْقاعِ المدنيُّ (ت: ١٣٠ هـ).

٩ – يَعقوبُ بنُ إِسْحاقَ الحَضْرميُّ (ت: ٢٠٥ هـ).

١٠ – خَلَفُ بنُ هِشامٍ البَغداديُّ (ت: ٢٢٩ هـ).

القِراءاتُ الشّاذّةُ:

تعريف القراءة الشَّاذَّة: هي كلُّ قِراءَةٍ لم يتوفَّر فيها شَرْطٌ واحِدٌ مِنْ شُروطِ القِراءَةِ الصَّحيحَةِ التي سبَقَتْ في ضوابطِ القِراءَةِ المقبولة.

وهذا الإِطْلاقُ للشُّذوذِ قديمٌ، وكان الأصلُ فيه إِطلاقُ الشُّذوذِ على ما خالفَ رسمَ المصحفِ، واستوفى سائرَ الشُّروطِ، ويُطلقُ على القِراءَةِ التي استوفت الشُّروطَ إِلّا أَنَّ سندها ضعيفٌ «رِوايةً ضَعيفة»، كما أَطْلقوا عليها وصف «الشُّذوذِ» أَيضاً على سبيلِ التَّوسُّعِ.

أَمّا إِذا لم يوجَدْ للقِراءَةِ سندٌ فإِنَّها تكونُ رِوايةً مَكْذوبة مُخْتَلَقَة، حتَّى لو وافَقَت المعنى ورْسَمَ المصحَفِ.

أمّا حكمُ القِراءَةِ الشّاذَّةِ فيتلخَّص بما يلي:

١ – يَحرمُ القِراءَةُ بها، ولا تَجوزُ الصَّلاةُ بها، لأَنَّها ليستْ قُرْآناً.

٢ – ذَهبَ كثيرٌ مِنَ الفُقهاءِ – ومنهم الشّافعيَّةُ – إِلى عَدمِ الاحتِجاجِ بالقِراءَةِ الشّاذَّةِ، لأَنَّها زُعِمَتْ قُرْآناً ولم يثبتْ ذَلِكَ.

وذهبَ الحنفيَّةُ إلى أَنَّه يجوزُ الاحتجاجُ بها في الأَحْكامِ، لأَنَّها مِنْ قَبيلِ التَّفسيرِ، والظّاهِرُ أنَّه تفسيرٌ نَقَلَهُ الصَّحابيُّ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم.

٣ – أما الاحتجاجُ بالقِراءاتِ الشّاذَّةِ في اللُّغةِ فالرّاجِحُ قَبولُها، لأَنَّها لا تقلُّ عنْ كثيرٍ مِنْ شَواهِدِ النَّحويينَ واللُّغويِّنَ.

وبعدُ:

فإنَّ للأَحرُفِ السَّبْعةِ والقِراءاتِ أَهميَّةٌ بالِغةٌ، لما جاءَتْ بهِ منْ فوائِدَ في تَنْزيلِ القُرْآنِ وحفْظِ لُغاتِ العربِ ولَهَجاتِها، ولِزيادَةِ الدَّلالةِ على إِعْجازِ القُرْآنِ، فإِنَّها تؤيِّدُ بعضَها بعضاً، كما أنَّ نظمَ القُرْآنِ المُعْجِزِ يَجري في كلِّ قِراءاتِهِ على ما هو عليه مِنَ الإِعْجازِ (جَزالَةً، أَو تَتابُعَ سَرْدٍ، ونَغَمٍ موسيقيٍّ، مَعَ كثرَةِ أَوْجُهِ القِراءات) مما يزيدُ الدَّلالةَ على إِعْجازِ القُرْآنِ الكريمِ[1].

---

[1] انظرللتوسع في حِكَمِ نزولِ القُرْآنِ على سبعةِ أَحرُفٍ وقِراءاتِهِ في تفسير الطبري (١/٧٠ – ٧١) والأَحرُفَ السَّبْعةَ ومنزلة القِراءاتِ منها، للدكتور حسن ضياء الدين عتر ص ١٣٨ – ١٤٦ وغيرهما.

علوم القرآن

تمهيد

التّفْسيرُ

(حقيقتُه ، نشأتُه وتطوّره ، مذاهبُه وشروطُه)

المَكِّيُّ والمَدَنيُّ

(تعريف ، و خصائص ، والفائدة)

المُبْهَمُ والمتشابَهُ في القُرْآن

تمهيد

١ - ما هي علوم القرآن؟

٢ - (علوم القرآن) اصطلاح خاص.

٣ - متى ظهر هذا الاصطلاح؟

ما هي علوم القرآن؟

علـوم القـرآن كثـيرة، وحسـبك أنْ تعلـمَ أنَّ المكتبـةَ العَربيَّـةَ كلَّهـا بعلومهـا المختلفة الكثيرة، إنَّما انبثقت عن القرآن وتفرَّعت عنه

– فعِلْـمُ العَربيَّـةِ بفروعهـا مـن (أدبٍ، وبلاغـةٍ، وقواعـد، ولغـةٍ) مـن علـوم القرآن.

– والشَّـريعة الإسـلاميَّة بفروعهـا من (الفقهِ، والأُصـولِ، والتَّفسيرِ، والحـديثِ والتَّوحيدِ) من علومِ القرآنِ.

– والتّاريخ وكثير من مسائل الكونيات وأصول البحث من علوم القرآن.

قـال الزركشـي: «وَكُـلُّ عِلْـمٍ مِـنَ العُلـومِ مُنْتَـزَعٌ مِـنَ القُـرْآنِ وَإِلّا فَلَـيْسَ لَـهُ بُرْهانٌ»[1].

رَواهُ البَيْهَقـيُّ في المَـدْخَلِ عَـنِ ابنِ مَسْعودٍ أَنَّه قـالَ: «مَـنْ أَرادَ العِلْـمَ فَلْيُثَـوِّرِ القُرْآنَ (أي ليفكر في معانيه وتفسيره وقراءته) فَإِنَّ فيهِ عِلْمَ الأَوَّلينَ والآخِرينَ».

وَقالَ الزَّرَكشيُّ: «أَرادَ بِهِ أُصولَ العِلْمِ»[2].

وقبل أنْ تستعظمَ هذا الكلام، وتردّه إلى المبالغة والتزيد، نقول لك:

إنَّما يصدق هذا، على أساس الوجهين التاليين:

---

[1] البرهان: (٨/١).

[2] المرجع السابق: (٨/١).

الوجـه الأَوَّل: أن القـرآن يشـتمل علـى كـلِّ تلـك العلـوم اشـتمالاً مختلفـاً ومتفاوتاً.

فمنهـا مـا يشـتمل عليـه القـرآن بمعنـاه الحقيقـي دون أي تأْويـل أو مبالغـةٍ كـ(علوم الفقه، والأصول، والتَّفسير، والبلاغة، والقواعد، واللُّغة).

ومنهـا مـا يشـتمل القـرآن علـى أصـوله ومفاتيحـه، بمعنـى أن ينبّـه القـارئ إليـه ويرشـده إلى كثير من كلياته وأصوله، ككثيرٍ من العلوم الكونية والفلكيَّةِ، وعلـم الطبِّ والأَبدانِ.

الوجه الثّاني: أنَّ القرآنَ هو الذي نبَّه العربَ والمسلمين إلى ضرورة الإقبـال علـى هـذه العلـوم والأبحـاث، بـل هـو المنطلـق الأَوَّل لشـيءٍ اسمـه «التَّـدويْن» في التاريخ العربي.

فالقرآن – كما قد رأيت فيما مضى –:

– هو الذي أَشعرَ النّاسَ بضرورةِ وضعِ قواعد في النَّحو والإِعرابِ.

– وهـو الـذي أَشْـعرَهم بالحاجـةِ إِلى وضـع مـوازين وضـوابط للبلاغـة العَربيَّـة ووجوهها.

– وهو الذي دعاهم إلى وضع الموسوعات اللُّغوية المختلفة.

– وهو الذي اضطرهم إلى تدوين شيءٍ اسمه (علم الكلام) بما يشتمل عليه هذا العلم من قواعد البحثِ والمنطق لتعزيز الأدلَّة النقلية بالبراهين العقلية.

ثم لـولا القـرآن ومـا أدَّى إليـه تدوينـه والإِقبـال عليـه، لمـا أَقبلـوا بعـد ذلـك إلى شيءٍ من العلوم الكونية والتشريح والطب.

وآية ما تقدَّم أن الذين نبغوا من العرب في هذه العلوم، إنَّما نفذوا إليها من دراساتهم القرآنية قبل ذلك، فأنت لا تكاد تقعُ على ترجمةِ واحدٍ منهم إلّا وتجده مفسِّراً فقيهاً ذا باع طويل في القرآن وعلومه، كـ(ابن النَّفيسِ) مثلاً فهو طبيبٌ نطاسيٌّ، وهو مكتشفُ الدَّورةِ الدَّمويَّة، وهو قبلُ ذلك كان من كبارِ فقهاء الشّافعيَّةِ، وقد ألَّفَ في الفقه والسيرة النبوية، وترجم له السُّبكيُّ في (طبقات الشافعيَّةِ)[1].

والخلاصـــــة إنَّ بُنيةَ الحضارةِ العَربيَّةِ بما اشتملت عليه من علومٍ وفنونٍ وفكرٍ وابتكارٍ، إنَّما قامت بتأثير القرآن وعلى ضوئه، ولا ينافي ذلك ما نعلَمه جميعاً من كيفية تسلسل الأَحْداثِ وارتباطِ الأمورِ ببعضها. إنَّما المهم أنْ تعلم أَنَّه لولا القرآن لما كانت هذه المكتبة العَربيَّةُ التي نرفع الرأس بها اليوم عالياً. وذلك معنى قولنا: القرآن يحتوي على علوم كثيرة جداً، وهو معنى قول الزركشي السابق: «كُلُّ عِلْمٍ مِنَ القُرْآنِ مُنْتَزَعٌ».

(علوم القرآن) اصطلاح خاص:

ثم إنَّ هذه الكلمة أصبحت تُطلَق على طائفةٍ معيَّنةٍ من الأبحاث الهامة المتعلِّقةِ بالقرآن تعلُّقاً مباشراً وقريباً. كـ(تفسيره، وناسخه ومنسوخه، ومكيِّه ومدنيِّه، ومُحكَمِه ومتَشابِهه، وقراءاته ... وغير ذلك)، لأنَّ كلّاً من هذه الأبحاث، قد دار حولهُ كلامٌ كثيرٌ، واستلزم فهمُه معرفةً دقيقةً لضبطه وتحديده،

[1] انظر طبقات السبكي : (١٢٩/٥).

وأُلِّفت فيه الكتب المستقلَّة، فتحوَّلت المعرفة بذلك إلى علمٍ، كما يقول ابن خلدون[1].

- فالتَّفسيرُ إذاً فنٌّ مستقلٌّ برأْسِه، يقوم على أُسسٍ ومقوِّمات وشروط.
- والنّاسخُ والمنسوخُ في القرآن أَيضاً فنٌّ خاصٌّ يقوم على دراسةٍ معيَّنةٍ وأَهميَّةٍ خاصَّة.
- والمُحكَم والمُتشابه كذلك .. وهلمّ جراً.

ثم لما كثُرت تآليف العلماء في هذه القرون، وأَطلقوا على جُملتِها اسم (علوم القرآن) وتكرَّر هذا الاسم وتداوله الباحثون والكاتبون، أَصبح هذا الإطلاق عَلَماً على هذه الطّائفةِ من علوم القرآن وأَبحاثه. وأَصبَحتْ هذه الطّائفةُ من الأبحاثِ عِلماً مستقلّاً برأْسِه.

متى ظهر هذا الاصطلاح؟

ثم إِنَّكَ تعلمُ أنَّ عصرَ الصَّحابةِ كان عصرَ تلقٍّ للقرآن والسنّة، وكان الصَّحابةُ رضوان الله عليهم يُدرِكون معاني الأَلفاظِ وما وراءها بفطرتِهم العَربيَّةِ الأَصيلة، فإذا أشكَلَ عليهم شيءٌ من وراءِ ذلك أَيضاً سأَلوا عنه رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثم كانت رقعة حياتهم ضيِّقة لا تزخر أو تتزاحم فيها التَّقاليدُ والأَفكارُ والمشكلات الطارئة، فكانت معارفهم في أذهانهم، وكان مرجعهم فيها رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ثم كبار الصَّحابةِ من بعده، فلم يكن عندهم شيءٌ مما أُطلِق عليه فيما بعد اسم «علوم القرآن».

---

[1] مقدمة ابن خلدون: ٢١٤ طبعة بولاق.

ثم لما كان عصرُ التّابعينَ، أَقبلَ التّابعونَ على مشاهيرِ الصَّحابةِ يتعلمون منهم كتاب الله تعالى وتفسيره، وربما أخذَ البعض يدوِّنُ من ذلك الكثير مما يحرص عليه.

وقد اشتَهر من التابعينَ في دراسةِ القرآنِ وتفسيره: مجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء ابن أبي رباح، والحسن بن يسارٍ البصري.

روى ابن كثيرٍ عن ابنِ مُليكَة قال: رأيتُ مُجاهداً سألَ ابنَ عبّاسٍ رضي الله عنهما عن تفسيرِ القرآن، ومعه أَلْواحُه، قال: فيقول له ابن عباس: «اكتب» حتى سأله عن التَّفسيرِ كلِّه[1].

وهكذا تكوَّن وظهر في عصر التابعين «علم تفسير القرآن» في مقدمة علومه وأبحاثه الأخرى، إذ هو أساسها وإليه مردُّها؛ ظهر عِلماً بدأَ تدوينه وجمعُه، بعد أن كان معارفَ في الأذهان والصدور.

ثم تفرع عن علم التَّفسير علومه الأخرى، عندما تكاثر أرباب الاختصاص في الدراسات العَربيَّة والإسلامية.

- فالفقهاءُ والأُصوليون عنوا منها بـ(علم النّاسخ والمنسوخ).

- وعلماء التَّفسير والكلام اهتموا من ذلك بـ(علم المُحْكَمِ والمُتَشابهِ، والقراءات).

- وعلماء العَربيَّة انصرفوا إلى مباحث (الإعجاز والأسلوب، وعلم إعراب القرآن) .. وهلمّ جراً.

---

[1] تفسير ابن كثير ١/٤).

ولا شكَّ أنَّ هذه الفنون لم تظهر في حقبةٍ واحدةٍ مِنَ الزَّمنِ، وإنَّما ظهرت متتابعة، إلّا أنَّها تكاملت علوماً خلال القرنين الثّاني والثالث.

أما إطلاق لفظ (علوم القرآن) اصطلاحاً على هذه العلوم القرآنية فإنَّ البعضَ يرى أنَّ الإمامَ الشافعيَّ هو أَوَّلُ من سيَّرَ هذا الاصطلاح وذلك أنَّ الخليفة هارون الرَّشيد سأَله: كيف علْمكَ يا شافعيُّ بكتاب الله؟

فقال الشافعيُّ: عن أيْ كتاب من كُتبِ اللهِ تسألني يا أمير المؤمنين؟ فإن الله أنزل كُتباً كثيرة!

قال الرَّشيدُ: قد أحسنتَ، لكن إنَّما سألتُ عن كتاب المنزّل على محمد صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

فقال الشافعي: إنَّ **للقرآن علوماً كثيرة**، فهل تسأَلُني عن مُحكَمِه ومُتَشابِهه، أو عن تَقديمِه وتأْخيرِه أو ناسِخِه ومَنْسوخِه؟

وأَغلبُ الظنِّ أنَّ الكلمةَ أصبحت اصطلاحاً، بتداول المؤلِّفين لها، وجعلها اسماً على مباحثهم المتعلِّقة بالقرآنِ. وأيّاً كان الأمرُ فإنَّ الخَطْبَ في ذلك يسيرٌ وهو ما لا يتعلَّقُ لنا به غرض كبير.

تعريف علوم القرآن في الاصطلاح، والتَّصنيف فيه[1]:

علوم القرآن اصطلاحاً: «هو المباحث الكلية التي تتعلَّق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله، وترتيبه، وجمعه، وكتابته، وتفسيره، وإعجازه، وناسخه ومنسوخه، ... وغير ذلك»[2].

---

[1] هذه الفقرة مستفادة من كتاب الأستاذ نور الدين عتر حفظه الله: (ص: ٨).

[2] وقد قال الدكتور عتر حفظه الله معلِّقاً: ومن هنا ندرك الخطأ الواضح الذي وقع فيه من عرّف علوم القرآن فقال: «هي جميع المعلومات والبحوث التي تتعلَّق بالقرآن ... ». =

التَّصنيفُ في علومِ القرآن:

وبالنَّظرِ لأهميَّةِ هذا العلم كثُرت الدِّراساتُ فيه في القديم والحديث، فكتب كثيرٌ من المفسِّرين في مقدِّمات تفاسيرهم بحوثاً هامَّة في علوم القرآن، عنوا فيها بما يتعلَّق بأصولِ تفسيره وإعجازه، على مثال مقدمة الطبري، لتفسيره «جامع البيان»، ومقدِّمة القُرطبيِّ لتفسيره «الجامع لأَحكامِ القرآنِ».

وصنَّفَ العلماءُ مؤلفات مستقلَّة تشمل كلَّ علوم القرآن، مثل هذه الكتب الهامة:

١ - «فنون الأفنان في عيون علوم القرآن»، للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ).

٢ - «البرهان في علوم القرآن»، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت: ٧٩٤هـ).

٣ - «الإِتْقانُ في عُلومِ القُرآنِ»، للإمامِ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت: ٩١١هـ). وقد بناه على كتاب البرهان، وأضاف إليه فوائد وبحوثاً.

وفي هذا العصر اقتصر الباحثون في هذا العلم على أهم ما يحتاج إليه الدارس في هذا العصر، اعتماداً على تكملة بحوث أخرى من علوم شرعية.

= فقد خلط بين المعنى اللغوي وهو يدل على علوم كثيرة، والمعنى الاصطلاحي وهو علم واحد، ألا ترى إلى قوله «هي». وهكذا استمر الخطأ ...

التّفْسيرُ

حقيقة التَّفسيرِ والفرق بينه وبين التَّأْويل

نشأةُ التَّفسيرِ وتطورُه

تدوين التَّفسير

مذاهب التفسير وشروطه

المشترك بين نوعي التفسير

شروط التَّفسيرِ

التَّفْسيرُ العِلميُّ والتَّفسيرُ الإِشاريِّ

حقيقة التَّفسيرِ والفرق بينه وبين التَّأْويل:

قال الزركشيُّ في (البرهان): «التَّفسيرُ علمٌ يُعرَفُ به فهْمُ كتابِ اللهِ المنزّل على نبيّه محمد صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبيانُ معانيه واستخراج أحكامه وحكمه؛ واستمداد ذلك من علمِ اللُّغةِ والنَّحوِ والصَّرفِ وعلمِ البيانِ وأصولِ الفقهِ والقراءات»[1].

وثمَّة كلمة أخرى كثيراً ما تستعمل في مكان التَّفسير، وهي: «التَّأْويل».

إلّا أنَّها ليست مرادفة للتفسير بمعناه الدقيق، بل هي في الأصل تختلف عنه اختلافاً ما، ولكن كثرة استعمالها في مكان «التَّفسير» جعلها تؤدي معناها وتقوم مقامها.

قال الإمامُ النَّوويُّ[2] في بيان الفرق بينهما:

«أما التَّأْويل؛ فقال العلماء: هو صرف الكلام عن ظاهره إلى وجه يحتمله، أوجبه برهانٌ قطعيٌّ في القطعيات، وظنيٌّ في الظَّنيّاتِ.

وقيل: هو التَّصرّف في اللَّفظ بما يكشف عن مقصوده.

وأَمّا التَّفسير: فهو بيان معنى اللَّفظة القريبة أو الخفية».

أقول: ولعلّ هذا التفريق أصحّ ما قد قيل في ذلك.

ولكنَّ هذا الفرق ناظرٌ إلى معنى كلٍّ من الكلمتين من حيث دلالتها اللُّغوية. أما عندما تصبح كلمةُ «التَّفسير» إطلاقاً على علمٍ معيَّنٍ كما ذكرنا، فهي تتَّسع

---

[1] البرهان للزركشي ١٣/٢).

[2] في تهذيب الأسماء واللُّغات للنووي: (١٥/٣)، وانظر البرهان: (١٤٩/٢).

حينئذ لمعنى التَّفسير والتَّأْويل، إذ الكلُّ يدخل تحت مدلول هذا العلم. وتبقى العلاقة حينئذٍ بين الكلمتين (العموم والخصوص المطلق) فكلُّ تأْويلٍ تفسيرٌ، وليس كلُّ تفسيرٍ تأْويلاً.

ولعلَّك تسأَلُ فتقولُ: فإذا كان القرآنُ كِتاباً مبيناً، وقد نزلَ إلى النّاسِ ليقرؤوه فيفهموه، فينبغي أنْ يكونَ غنيّاً عن التَّفسيرِ والمُفسِّرين؛ وينبغي أنْ يكونَ مفهوماً بذاتِه، لأنَّ اللهَ تعالى إِنَّما يُخاطِبُ عبادَه بما يفهمونه، ففيمَ احتيج إلى تفسيرِه؟

فالجواب: الحاجةُ إلى تفسيرِ القرآنِ ليستَ بسبب أَنَّه كتاب مُبْهَمٌ يحتاجُ إلى مفتاحٍ له ومُترجِمٍ عنه وإِنَّما الحاجة إليه من وجوهٍ أُخْرى نُجمِلُها فيما يلي:

الوجهُ الأَوَّلُ: أنَّ القرآنَ جارٍ على أُسلوبٍ يصحُّ أنْ يخاطبَ به طبقات النّاسِ كلهم على اختلاف مداركهم وثقافاتهم – كما سنشرح ذلك فيما بعد – فهو يُعطي كلّاً، من معانيه وأَحكامِه قدرَ طاقته وما يتَّسع له فكره؛ فإذا أَرادَ القارئُ أنْ يستشِّف منه ما وراء ذلك وينتهي في سبرِ أَغوارِه إلى أَكثرَ مما فهمه منه بطبيعته وفكره، فإنَّ سبيله إلى ذلكَ الرُّجوع إلى فهمِ من هُمُ أَوْسَعُ منه علماً وأغزرُ ثقافة وفهْماً ليُبَصِّروه بما وراء الذي انتهى عنده علمه من دلائله ومعانيه. فهذا وجه من وجوه الحاجة إلى التَّفسير.

الوجه الثّاني: أنَّ القرآنَ – كما قالَ الزرَّكشيُّ – كلامُ متكلِّم لم يصلِ النّاسُ إلى مرادِه بالسَّماعِ منه، ولا إمكانَ للوصول إليه، بخلافِ الأَمْثالِ والأشعارِ، فإنَّ الإنسانَ يمكن علمه بمراد المتكلِّم بأنْ يسمع منه أو ممّن سمع منه[1].

---

[1] البرهان: (١/١٦).

ومن هنا تجد القرآنَ مُحاطاً بسورٍ من الرَّهبةِ والجلالِ يمنعُ قارئه أنْ يُسرِعَ فيقتَحمَ إليه بالشَّرحِ والتَّفسيرِ كما يشرح الكتب الأخرى. وإنَّما الشَّأْنُ أنِ يتوسَّط إلى ذلك بما قد أُثِرَ من تفسيرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم له أَو أُثِرَ من تفسيرات الصَّحابةِ رضوان الله عليهم، فهو الذي أَوحيَ إليه القرآنُ مباشرةً، وهو الذي أَمرَه اللهُ عزّ وجلّ بأن يبيّنَ للنّاسِ ما نُزِّلَ إليهم.

فهذا وجه ثانٍ في الحاجةِ إلى تفسيره والاطمئنان إلى حقيقةِ معانيه المُرادة منه.

الوجه الثالث: إنَّ القرآنَ كتابٌ يحتوي بين دُفتيه

- مبادئَ العقيدةِ والتَّوحيدِ.
- كما يحوي مبادئ الشَّريعةِ وأحكامَ الحلالِ والحرامِ.
- ويشمل التَّوجيهاتِ الأَخلاقيَّة، ومبادئ التَّنظيماتِ الاجتماعيَّةِ.
- إلى جانبِ ما فيه من عِبَرِ الأممِ الماضيةِ والإخبارِ عن المغيَّبات ووجوه النِّقاشِ والحِجاجِ.

فلا جرمَ أَنَّه إنَّما يتناولُ كلَّ ذلك ويعالجه بأسلوبٍ من التَّركيز والاختصار يضمن للقارئ الفَهم الموجز الكليّ من ناحيةٍ، ويحمله على البحثِ والدَّرسِ والوقوفِ على تفصيلات ذلك من ناحيةٍ أُخرى. فكانت الحاجة إلى تفسير القرآن من هذه الجهة استجابةً للغرض المتعلِّق بتفصيل موجزاته وشرح كلّياته.

الوجه الرابع: أنَّ المعنى الذي يُرادُ بتفسيرِ القُرآنِ – بعد كلِّ هذا الذي ذكرناه – ليس متوقِّفاً على شرحِ الكلمةِ وترجمتها، وإنَّما هو يتعدَّى ذلك إلى

وجوهٍ وأَنْواعٍ من الاستنباطات المُتعلِّقةِ بدقائقِ المباحثِ والعلومِ، تختلف حسب اختلافِ وجهةِ المفسّرِ واختصاصِه من عربيَّةٍ، وأصولِ فقهٍ، وتوحيدٍ، وكونيات.

والقرآن – كما قد علمت وستعلم – ذو دلالات متسلسلةٍ لا تكاد تتناهى. وإِنَّما سبيلُ الكشفِ عنها أو عنْ بعضِها، بعكوف أَربابِ الاختصاصات عليه بالدَّرسِ والبحثِ والتَّفسيرِ.

فهذهِ هي خلاصةُ الأَسبابِ الدّاعيةِ إلى تفسيرِ القرآنِ وشرحِه. وهي – كما رأَيتَ – أَسبابٌ لا تتنافى مع كونهِ كِتاباً عربياً غير ذي عوجٍ، ولا تتعارضُ مع ما هو مقرَّرٌ ثابتٌ من أنَّ اللهَ إِنَّما يُخاطِبُ عباده بما يفهمونَ.

نشأةُ التَّفسيرِ وتطورُه:

نشأَ علم التَّفسيرِ في صدْرِ الإِسلامِ، في عصرِ رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإن لم يكن يُسمَّى حينئذٍ علماً. وذلك هو الشَّأنُ في سائرِ العلومِ الإِسلاميَّةِ – تقريباً – نشأَت حقائقها في صدرِ الإِسلامِ، وتكوَّنت أَغلفَتُها فيما بعد. ومعلومٌ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو أَوَّلُ من مارس التَّفسيرَ وعلَّمه للنّاسِ، إذ كان هو المصدر الأَوَّل لفهمِ الكتاب وتبيينه. ولا بدَّ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بيَّنَ لأصحابِهِ سائرَ مَعاني الكتاب كما بيَّنَ لهم أَلْفاظِه وطريقةِ تلاوته[1].

التَّفسيرُ زمنِ الصَّحابةِ:

أمّا الصَّحابةُ، فهم الطَّبقةُ الأوْلى في تاريخِ علماءِ التَّفسيرِ، وهم الأَساسُ والأصلُ اللَّذان قامت عليهما نشأةُ علم التَّفسيرِ.

---

[1] انظر الإتقان للسيوطي: (١٧٨/٢).

غير أنَّ الصَّحابةَ ليسوا كلّهم في مستوى واحد من العلم بكتاب الله تعالى والوقوف على تفسيره، وإنَّما هناك نخبة امتازت واشتهرتَ من بينِ سائرِ الصَّحابة بهذا العلم.

أشهرُ المفسِّرينَ من الصَّحابةِ:

منهم الخلفاء الراشدون الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأُبيُّ بنُ كعبٍ، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، وأنس بن مالك، وأبو هريرة، وجابر، وعبد الله بن عمرو بن العاص رضوان الله تعالى عليهم أجمعين[1].

ولقد كانَ أَكثرُ هَؤلاء روايةً للتَّفسيرِ أكثرهم تعميراً وأَطولهم حياةً، فمن أَجلِ ذلك كان ابنُ عبّاسٍ رضي الله عنهما (ت: ٦٨ هـ) في مقدِّمة من اشتهر من الصَّحابة بالتَّفسير، وقد رويَ عنه في التَّفسيرِ ما لا يَكادُ يُحصى كثرةً، وقد سمّاهُ ابنُ مسعودٍ (ترجمان القرآن).

ومن أجل ذلك تجد الخلفاءَ الثَّلاث: أبا بكر وعمر وعثمان أقلّ الذينَ ذكرناهم روايةً له بسبب تقدم وفاتهم، ولعله بسبب أَعباءِ الخلافة أيضاً[2].

وأنت تعلم أنَّ التَّفسير إنَّما كان عند هذه الطبقة رواية وأداء بالنُّطقِ والمشافهة فقط، ولم يكن شيءٌ منه يكتب على عهدهم، كما لم يكتب أيِّ علمٍ آخر اللهمّ إلّا القرآن والحديث.

التَّفسير في عهد التابعين:

ثم تأتي (الطبقة الثّانية) من علماء التَّفسير، وهي طبقة التابعين، وقد نبغ منهم في التَّفسير ثلاث طوائف:

---

[1] انظر كشف الظنون : (١/١٧٨).

[2] انظر كشف الظنون: (١/٢٩٨)، والإتقان: (٢/١٨٧)، وتفسير ابن كثير: (١/٤).

الطّائفة الأوْلى:

وهم أصحاب عبد الله بن عباس، من علماءِ مكَّة المكرمة، أشهرهم:

مجاهدُ بنُ جبرٍ (ت: ١٠٣هـ).

وسعيدُ بنُ جُبيرٍ (ت: ٩٤هـ).

وعِكرمةُ مولى ابنِ عباسٍ (ت: ١٠٥هـ).

وطاووس بن كَيْسان (ت: ١٠٦هـ).

وعطاء بن أَبي رباح (ت: ١١٤هـ).

وهذه الطّائفة تُعدُّ من أَعلم النّاسِ بالتَّفسيرِ في عصرِ التابعين، وفي مقدِّمتهم مجاهدُ بنُ جبرٍ، نقل النَّوويُّ عنه أَنَّه قالَ: «عرضتُ القرآنَ على ابن عباسٍ ثَلاثينَ مرَّةً»، وقال: «كان أَعلمهم بالتَّفسيرِ مجاهد»[1].

الطّائفة الثّانية:

وهم أَصْحابُ عبدِ اللهِ بنُ مسعودٍ، من علماء الكوفة، فمنهم:

علقمةُ بنُ قيسٍ النَّخعيُّ (ت: ١٠٢هـ).

والأسودُ بنُ يزيدَ النَّخعيُّ (ت: ٧٥هـ).

وإبراهيمُ بن يزيد النَّخعيُّ (ت: ٩٥هـ).

وعامر بن شراحيل الشعبي (ت: ١٠٣هـ).

الطّائفة الثالثة:

وهم أَصحابُ أنسِ بنِ مالكٍ وغيرِه، فمنهم:

---

[1] تهذيب الأسماء واللُّغات: (٨٣/٢)، وانظر الإتقان: (١٨٩/٢)، وكشف الظنون: (٢٩٩/١).

زيدُ بنُ أَسلمَ (ت: ١٣٦هـ).
وقَتادةُ بنُ دَعامةَ السَّدوسيُّ (ت: ١١٧هـ).
والحسنُ بنُ يسارٍ البصريُّ (ت: ١١٠هـ).
وعطاءُ بنُ أَبي سلَمةَ (ت: ١٣٥هـ).
ومحمدُ بنُ كعبٍ القُرظيُّ (ت: ١١٧هـ).

فهذه الطَّوائفُ الثلاث، هي التي تُكوِّنُ الطبقةَ الثّانيةَ من علماءِ التَّفسيرِ. وإنَّما كان علم التَّفسيرِ عند هؤلاء؛ الرِّوايةَ عن الصَّحابةِ. فكانوا يَرْوونَ عنهم التَّفسيرَ إلى جانب ما يَرْوونَه من الحديثِ والفقهِ، ولكنَّهم اشتهروا بمزيدٍ من العناية بتفسيرِ كتابِ اللهِ، ولا سيما بعضاً منهم مثل مُجاهدٍ، وسعيدِ بنِ جُبيرٍ، والحسنِ البصريِّ.

غير أنَّ عملَ هذه الطبقة يمتازُ عن عملِ الصَّحابة بظهورِ الكتابة والتَّدويْنِ عندَ بعضِهم، وقد كانَ في مقدِّمةِ من قام بذلك (مُجاهدُ بنُ جبرٍ) من أَصحابِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما، فقد روى ابنُ جريرٍ عن أَبي مُليكَة قال: رأيتُ مُجاهداً سأَلَ ابنَ عبّاسٍ عن تفسيرِ القرآنِ ومعه ألواحُه. قال: فيقولُ لهُ ابنُ عبّاسٍ: اكتب، حتى سأَله عن التّفسيرِ كلِّهِ[1].

وهي وإنْ كانت كتابةً جزئيةً لم تبلغْ درجةَ التَّأليفِ بمعناه المأْلوف إلّا أَنَّها مهَّدتْ ذلك لأَربابِ الطَّبقةِ الثالثةِ الذينَ عَكفوا على تصنيفِ كُتبِ التفاسيرِ.

---

[1] تفسير ابن جرير: (١/٣٠).

تدوين التَّفسير:

أمّا الطبقةُ الثالثة فقد قامَ علماؤها بتأليفِ تفاسير واسعة تجمعُ ما انتهى إليهم من أقوالِ الصَّحابةِ والتابعينَ من مثل:

- تفسير سفيان بن عُيينة المكيِّ: (ت: ١٩٨هـ).
- تفسير وكيع بن الجرّاح الرؤاسيِّ (ت: ١٩٧هـ).
- تفسير شعبة بن الحجّاج العتكيِّ (ت: ١٦٠هـ) وغيرهم؛ وهم كثير.

ثم جاء في أعقابهم:

- شيخُ المفسِّرين الإمام الفقيه المحدِّثُ محمدُ بنُ جريرٍ الطبريُّ (ت: ٣١٠هـ) فجمَع أشتات هذه التفاسير وقرَّبَ منها البعيد.
- والإمام الحافظ عبدُ الرَّحمنِ بنُ أبي حاتم الرازي (ت: ٢٧١هـ).

وغيرهما.

وَكُلُّهُمْ مُتْقِنٌ مَأْجورٌ فَجَزاهُمُ الله خَيْراً - كما يقول الزَّركشيُّ[1] -.

وتفسيرُ ابنِ جريرٍ (**جامع البيان عن تأْويل آي القرآن**)، تفسيرٌ عظيمٌ جمع فيه المأثورَ بالسَّندِ وميَّز بين الصَّحيحِ منه وغيره، وأصبحَ مُستنداً هامّاً لسائر المُفسِّرين من بعده.

ولقد امتاز عمل هذه الطبقة من المفسِّرين بما يلي:

أَوَّلاً- جمعوا ما انتهى إليهم من أقوالِ الصَّحابة والتابعينَ في تفسير آيات القرآن، في مؤلَّفاتٍ منسَّقةٍ ينتظم فيها تفسيرُ جميعِ آيِ القرآن بترتيبها المعروف، وبذلك تمَّ ظهور هذا الفن العظيم في مؤلفاتٍ ومصنَّفاتٍ جامعة.

---

[1] انظر البرهان: (١٥٩/٢).

ثانياً– ضبطوا الرِّواية عن الصَّحابةِ، فقد بحثوا في حال التّابعينَ الذين نقلوا إليهم أقوال الصَّحابة في القرآنِ، فاعتمدوا منهم من توفَّرت لديهم شروط الرِّوايةِ وأَمارات الثِّقة وأَهملوا الآخرين، وذلك لَمَّا اندسَّ في صفوفهم من الدُّخلاءِ المتستِّرين بلباسِ العلمِ والإسلامِ، نمثِّل لذلك بطرق الرِّواية عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

طرق رواية التَّفسير عن ابن عبّاسٍ:

قام ابنُ جريرٍ وابنُ أبي حاتمٍ ومن صنَّفَ التَّفسير في هذه المرحلة باعتماد أسانيد وطرق لروايةِ التَّفسير عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما ف

– اعتمدوا مثلاً طريق علي بن أبي طلحة الهاشمي (ت: ١٤٣هـ)، لأنها كانت أصح الطرق عنه، واعتمد عليها البخاري في صحيحه.

– وأهملوا بالمقابل طريق محمَّدِ بنِ السّائب الكلبيِّ (ت: ١٣٦هـ) عن أَبي صالحٍ مولى أمِّ هانئ (ت: ٢٢٣هـ) عن ابن عباسٍ، وقالوا: فإن انضمَّ إليهما محمدُ بنُ مَروانَ السُّديُّ (ت: ١٨٦هـ) فهي سلسلة الكذب[1].

ثالثاً – أَضافوا إلى ما نقلوه عن الصَّحابةِ والتّابعينَ زياداتٍ واستنباطات توسَّعوا فيها، فمنها ما يتعلَّقُ بالعَربيَّةِ، ومنها ما يتعلَّقُ بالقراءات، ومنها ما يتعلَّقُ بالفقه وأحكام الحلال والحرام، ملتزمين في ذلك قواعِدَ التَّفسير وشروطه التي سنتحدث عنها فيما بعد إن شاء الله.

ولعلّ أهم هذه الأَعمال الثَّلاثة، هو ضبطُ الأَسانيدِ والرِّوايات ونخلُها بذلك المنخل العلمي العظيم الذي لا ولن يملك مثله لدى البحث العلمي غير

---

[1] انظر الإتقان للسيوطي: (١٧٨/٢)، وكشف الظنون: (٢٩٩/١).

المسلمين، وأنّى للآخرين أن يرتقوا فيما يزعمونه من البحث العلمي إلى هذا المستوى، وإنَّما بحوثهم العلمية كلها تقوم على أساسِ (الاستنتاج) ويا له من أساسٍ علميٍّ متين؛ ذاك الذي يقتنص حقائق العلم وسط دخان الأهواء وفي سبحات الخيال!!.

ولقد كان علمُ التَّفسيرِ خلالَ هذه المراحل الثَّلاث يضمُ كلَّ ما يتعلَّقُ بفهم القرآنِ وكشف أسراره وغوامضه، من (قراءاتٍ، وأَسبابِ نزولٍ، وناسخ ومنسوخٍ، ومتشابه) إذ كان الحديث عن ذلك كلِّه داخلاً في تفسير القرآن.

فلمّا توسَّعت الاختصاصاتُ العلميَّةُ، وظهر العلماءُ الذين اختصّوا – بعد كفايتهم العلمية – بالفقه، والذين اختصّوا بعلم الكلام، والذين انصرفوا إلى علم القراءات وهلمّ جرّاً – أخذ كلٌّ من أرباب الاختصاص يتناول من تفسير القرآن ما يتعلَّقُ باختصاصه فيفرده بالبحث والتأليف.

– وهكذا انفصل بحث القراءاتِ من علم التَّفسير، لـمّا أَفردَ القُرّاءُ التآليف فيه، فأصبح علماً مشتقاً من التَّفسير.

– وانفصل عنه مبحث أَسبابِ النُّزولِ وأُفرِدَ بمؤلَّفاتٍ.

– وانفصل النّاسخ والمنسوخ، لـمّا أفرد فيه علماء الفقه والأصول والبحث والتأليف.

– وانفصلت عنه مباحثُ إعراب القرآن لما عني النُّحاةُ بإفرادِ التَّصانيفِ في ذلك.

ولم تكن هذه الظّاهِرة وحدها ثمرة ظهور الاختصاصات العلمية، بل ثمة ثمرة أخرى. فلقد أخذت كُتبُ التَّفسيرِ تتَّجه فيما بعد – من حيث العناية والاهتمام – وجهة اختصاص المؤلف:

فقد ألّف علماء العَربيَّةِ في تفسير القرآن، ليخدموا بذلك فنهم، فكان عملهم يتركز على إبراز بلاغته العَربيَّةِ وإعجازه اللُّغوي، من ذلك:

– تفسير (الكشّاف عن حقائقِ التَّنزيلِ) لجارِ اللهِ محمود بن عمرَ الزَّمخشريِّ (٥٣٨هـ).

– وتفسير (البحر المحيط) لأَبي حيّان الأَندلسيّ (ت: ٧٤٥هـ).

– وتفسير (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) لأَبي السُّعودِ محمد العمادي (ت: ٨٣٩هـ).

وألَّف علماء الفقه فيه أيضاً؛ ليستجلوا منه أحكام الحلال والحرام، فكان عملهم منصبّاً منه على هذا الجانب أكثر من غيره، كـ:

– (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي محمد بن أحمد الخزرجي (ت: ٦٧١).

– و(أحكام القرآن) لأبي بكر ابن العربي محمد بن عبد الله المعافري (ت: ٥٤٣)، واقتصر في تفسيره على تفسير آيات الأحكام فقط.

وألّف فيه علماء التوحيد والكلام، ليستخرجوا منه دلائل التوحيد وفروعه ومتعلَّقاتِهِ، فلم يعنوا منه العناية التّامَّة إلّا بهذا الجانب دفاعاً عن العقيدة الإسلاميَّة وتجليةً لأَمرها، كالإمام فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦) في تفسيره: (مفاتيح الغيب).

فهذه خلاصة كافية عن نشأة علم التَّفسير وتطوره.

مذاهب التفسير وشروطه:

اتَّخذَت مناهِج المُفسِّرين في تفسيرِ كلام الله عزّ وجلّ أحدَ مذهبين:

الأَوَّلُ: التزام الوارد في تفسير الآية عن الرسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو عن الصَّحابةِ أو التابعين، دون سوقِ أي زيادة على ذلك، اللهمّ إلّا أنْ تكونَ شرحاً

لغويّاً لكلمةٍ، أو كَشْفاً عن إعرابِ جملةٍ، أو نحو ذلك، وقد أُطلِق على هذا المسلك فيما بعد اسم «**التَّفسير بالمأثور**».

ومن أشهر كتب التفسير بالمأثور:

١ – تفسير الطبري، وقد مرَّت الإشارة إليه قريباً.

٢ – تفسير القرآن العظيم: للإمام عماد الدين إسماعيل بن عمرو ابن كثير الدمشقي، (ت: ٧٧٤ هـ) وقد وصف ابن كثير بـ«أنه منقِّحُ التَّفسير»، ويمتاز تفسيره بحسن الانتقاء، مع نقدٍ للمرويات فيميز الصَّحيح من الضعيف.

٣ – لباب التَّأْويل في معاني التنزيل: المعروف بـ(تفسير لخازن) لأبي الحسن علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي[1]، يكثر من التفسير المأثور، وتظهر في هذا التفسير العناية بتخريج الأحاديث النبوية من الصحيحين والسنن الأربعة وغيرها، وشرح غريب الأحاديث التي يوردها.

الثّاني: عدمُ الاقتصار على ذلك، بأن يتجاوز المفسِّرُ حدودَ الوارد والمأثورِ في تفسيرِ الآيةِ، إلى استنباطاته الخاصَّة من دلائلِ الصّيغةِ أو قواعدِ العلومِ، إذا كان اللَّفظُ قابلاً لحمل المعنى المستنبط، وقد تكون هذه المعاني المستنبطة مباحث من علومٍ وفنون مختلفة غير التي تدلُّ عليها الآية من قريبٍ.

وقد أُطلِقَ على هذا المسلك فيما بعد اسم «**التَّفسير بالرأي**».

ومن كتب هذا المسلك، التفاسير التي مرَّت الإشارة إليه قريباً: (مفاتيح الغيب) للرّازي، تفسير (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) لأبي السعود

---

[1] وعُرِفَ بـ(الخازن)، لأنَّه كان خازن كتب خانقاه السِّميساطيَّة بدمشق.

العمادي، و(الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي، و(البحر المحيط) لأبي حيان، وأحكام القرآن) لابن العربي. ومنها أيضاً:

– تفسير البيضاوي (أنوار التَّنْزيلِ وأسرار التَّأْويل) للإمام عبد الله بن عمر البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ): وه تفسير متوسط الحجم، جمع التفسير والتَّأْويل، وقرَّر فيه الأدلَّة على أصول أهلِ السنّة.

– تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التَّأْويل) لعبد الله بن أحمد بن محمود النسفي الحنفي، (ت: ٧٠١ هـ): جمع فيه بين وجوه الإعراب والقراءات، عني بكشف وجوه البلاغة وأساليب الأداء في القرآن، وعند آيات الأحكام يعرض للمذاهب الفقهية التي لها تعلُّق وارتباط، كل بدون توسع، أو إطناب، فهو موجز العبارة سهل المأخذ غزير الفائدة.

المشترك بين نوعي التفسير:

لا يذهبنَّ بك الوهم إلى أنَّ أصحابَ التَّفسيرِ بالرَّأْي يستبدلون بالرِّوايةِ والأحاديثِ الثّابتةِ في تفسير الآية رأْياً أو حكماً من عند أنفسهم، فهذا مما لا يُقْدِمُ عليه مسلم وهو عملٌ محرَّمٌ بالاتفاق.

بل الحقيقة أنَّ ثـمَّةَ قدراً مُشتَركاً بين أصحاب التَّفسيرِ بالمأثور والتَّفسيرِ بالرأي، وهو الأخذ بما صحّ عن رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو عن الصَّحابة (على الصَّحيحِ الذي يَعتَبِرُ قولَ الصَّحابيِّ في التَّفسيرِ في حكمِ المَرفوعِ) في تفسيرِ الآية. ثم يفترقان بعد ذلك:

فصاحب (التَّفسير بالمأثورِ) لا يزيد على ذلك إلّا أن يعزِّزَ النَّقلَ بنقولٍ أُخْرى مثلها أو مخالفةٍ لها ليجمع بينهما.

وصاحب (التَّفسيرِ بالرَّأي) يُجيزُ لنفسهِ أنْ يزيدَ على ذلِك من اجتهاداته واستنباطاته المختلفة بقدرِ ما تسمح به دلالةُ اللَّفظِ.

شروط التَّفسيرِ:

إنَّ الذي يجمع بين طَريقتي التَّفسيرِ بالمأثورِ والتَّفسيرِ بالرأي (**شروطٌ أَرْبعةٌ**) لا بدَّ من مُراعاتِها لكلِّ من حاوَلَ أنْ يُفسِّرَ شيئاً مِنْ كتابِ الله تعالى أيّاً كان مسلكه ومنهجه في ذلك:

(**الشرط الأَوَّلُ**): التزامُ القولِ بما ورد عن رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في ذلك، إذا كان فيه حديثٌ ثابتٌ صحيحٌ؛ قالوا: ولكن ينبغي الحَذر من الوقوعِ في الضَّعيفِ والمَوضوعِ أَيْضاً، وقد بيَّن العلماءُ ذلكَ وميَّزوه.

وقال ابنُ جريرٍ ما خلاصته: ومصدرُ هذا الوجوب أنَّنا نقطعُ أنَّ في القرآنِ ما لا نُدركُ معناه إلّا ببيانِ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، مثالُ ذلك جميعُ الآياتِ المُتعلِّقةِ بـ(الأَوامرِ والنَّواهي والإِرْشادِ)، مما يتوقَّفُ فهمُه على معرفةِ نوعِ النَّهي والأمرِ فيه، ومبالغ فرائضه وقدرها وحدودها وشروطها وقيودها، وهذا وجه لا يجوز لأحد القول فيه إلّا ببيان رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو إقراره لأحدٍ من الصَّحابةِ[1].

وعلى هذا المعنى يُنزَّل ما وردَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم منْ قولِهِ: «مَنْ قالَ في القُرْآنِ بِغيرِ علْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النّارِ»[2].

---

[1] ينظر تفسير ابن جرير: (١/٢٥).

[2] أخرجه الترمذي في تفسير القرآنِ، بابُ ما جاءَ في الَّذي يُفَسِّرُ القُرْآنَ بِرَأْيِهِ (٢٩٥١).

وما روي عن أَبي بكرٍ رضي الله عنه أَنَّه قال: «أَيُّ سَماءٍ تُظِلُّني، أَوْ أَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّني إِنْ أَنا قُلْتُ في كِتابِ اللهِ ما لا أَعْلَمُ؟»[1].

(**الشرط الثّاني**) التزامُ الأخذِ بقولِ الصَّحابةِ إذا كان قد أُثِرَ عنهم في ذلك قول. وهذا ما ذهب إليه الأكثرُ من أنَّ تفسيرَ الصَّحابةِ للقرآن يُعتَبرُ في حكم المرفوعِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذلك لأنَّه ليس من قبيلِ الرَّأْي وإِنَّما هو في الحقيقة من قبيل الرِّوايةِ.

(**الشرط الثالث**) التزامُ قواعدِ اللُّغة العَربيَّةِ وضوابطها ومقاييسها في التَّفسيرِ: فإنَّ القرآنَ نزلَ بلسانٍ عربيٍّ مبين، وإِنَّما تُفسِّره الدِّلالاتُ اللُّغويَّة والقواعدُ العَربيَّة، فمَنْ لم يكنْ ذا بصيرةٍ سليمةٍ في فَهْمِ العَربيَّةِ فليسَ له أنْ يُفسِّرَ شيئاً من كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، يقولُ الإمام مالكِ بنِ أَنسٍ رحمه الله: «لا أوتَى برجلٍ غير عالِمٍ بلُغاتِ العربِ، يُفسِّرُ كتابَ اللهِ تعالى، إِلّا جعلته نكالاً»[2].

(**الشرط الرابع**) التزام المقتضى الذي يدل عليه العلم بكتاب الله تعالى، والتزام أُصولِ الشَّرعِ وقواعده في الفهمِ والاستنباطِ والاجتهاد، كـ(المفهوم، والفحوى، ودلالة العام والخاص، والمطلق والمقيد...)، وهي في مجموعها إِنَّما تعتبر ملكةً علميَّةً تؤهِّل صاحبها لاستنباط المعاني والأحكام من كتاب الله عزّ وجلّ.

---

[1] فضائل القرآن للقاسم بن سلام (ص: ٣٧٥).

[2] البيهقي في شعب الإيمان، فصل في ترك التفسير بالظنِّ (٢٠٩٠).

فليس من ضيرٍ – بعد أن يلتزم المفسّر الشروط الثلاثة الأوْلى – في أنْ يستنبطَ مزيداً من التَّفسيرِ للآية بدلالة المقتضى والقواعد العلمية التي ترسَّخَ في معرفتها وتذوقها.

واستنباط المعنى من الآية بهذه الوسيلة، هو الذي دعا به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لابن عباس حينما قال: «اللهمّ فقّهه في الدين وعلّمه التَّأْويل» وهو المقصود بما قاله عليٌّ رضي الله عنه عندما سُئلَ: هل خصّكم رسولُ الله بشيء؟ فقال: ما عندنا غير ما في هذه الصحيفة أو فهم يؤتاه الرجل (رواه البخاري).

ولكن لا يجوز تفسير القرآن – على كلِّ حالٍ – بمُجرَّدِ الرَّأي والاجتهادِ من غير أصلٍ يستند إليه، فهو أَشبه بحالِ من لم تكن عنده أي بصيرة فقهيَّةٍ وهو يزعم أَنَّه يجتهدُ في استنباطِ أَحكامِ الفقهِ، ففي حقِّ مثلِ هذا قال رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «مَنْ قالَ في القُرْآنِ بِغَيْرِ عِلمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النّارِ»[1] وقال: «مَنْ قالَ في كِتابِ الله – عز وجل – برأْيِهِ فأصابَ، فقد أَخطأَ»[2].

قال البيهقيَّ[3]: هذا إِنْ صحَّ، فإِنَّما أَرادَ – واللهُ أَعلمُ – الرَّأْيَ الذي يغلِبُ من غيرِ دليلٍ قام عليه، فمثل هذا لا يجوز تفسير القرآن[4].

---

[1] أخرجه الترمذي في التفسير، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، (٢٩٥١) و(٢٩٥٢) وأخرجه أحمد في المسند (٢٠٦٩).

[2] أخرجه الترمذي في التفسير، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، (٢٩٥٣) ، وأبو داود في العلم، باب الكلام في كتاب الله بغير علم، (٣٦٥٢).

[3] في شعب الإيمان (٥٤٦/٣).

[4] هذه الشروط ذكرها الزركشي في البرهان: (١٥٦/١ والصفحات التي تليه، ونقلها السيوطي في كتابه الإتقان: (١٧٨/٢). وقد عرضناها بأَلْفاظ مختلفة ، قصداً لزيادة الإيضاح.

فهذه الشُّروطُ لا بدَّ من التزامها سواء بالنسبة لمن يفسِّرُ القرآنَ بالمأثورِ ولمن يفسِّرهُ بالرَّأْي.

وبذلك تعلم أَنَّه لا خلاف بين هذين المنهجين في التَّفسيرِ من حيث نقدِ أَصحابِ أحدهما على الآخرين، وإِنَّما هو مُجرَّد اختيار للطَّريقةِ، وما دامت الشُّروطُ متوافرة فلا ضيرَ.

التَّفْسيرُ العِلميُّ والتَّفسيرُ الإِشاريِّ:

ونختم حديثنا عن التَّفسيرِ ببيان أنَّ ما يسلكهُ بعضُ النّاسِ اليوم من تفسيرِ الآيات الكونيَّةِ في كتابِ اللهِ تعالى طبق نظرياتٍ وآراءٍ علميَّةٍ، لا دلالة في الآية عليها بميزانها اللُّغوي وحسب القواعد العلمية للتفسيرِ، بل هو من قبيل التَّفسيرِ الفاسدِ الذي يتَّبعُ فيه المفسِّرُ رأيه المُجرَّد.

ومثله ما يسمى بـ(التَّفسيرِ الإِشاري أَو الباطني) الذي تنْتَهِجُه بعضُ الفرقِ الباطنيَّةِ أَو المنحرفون من المتصوِّفةِ؛ ويسير وراءهم في ذلك طائفةٌ أُخرى من النّاسِ، هان عليهم القرآن وفرغت قلوبهم من الشُّعورِ بجلاله وهيبته، فاقتحموا إِليه بالتَّفسيرِ والتَّأْويلِ، طِبْقاً لما تَهواهُ أنفسُهم وتستدعيه عصبيّاتُهم وأَخيلَتُهم، وهم عن الشروطِ والضَّوابطِ التي ذكرناها، مُعرِضون وغافلون.

فالقرآنُ عند هؤلاء النّاسِ ليس أكثرَ من خادمٍ لتأييد آرائهم ومذاهبهم وأخيلتهم!.. لهم أن يختاروا ما يشاؤون من المذاهب والآراء والتَّصوراتِ في حقِّ أَنفسِهم ومصيرهم والكون الذي من حولهم، وعلى القرآن أنْ يكونَ طوعَ آرائهم والخادم الأمين لتصوراتهم وأفكارهم، ولا ضير أن يُجرَّ القرآنُ إلى ذلكِ جرّاً، خارج حدود اللُّغة وضوابطها والحقيقة ومجازها!!..

فإذا كانت تصوراتهم وقناعاتهم النَّفسيَّة تقضي بأنَّ عذابَ الكافرين يوم القيامة مُجرَّدَ شعورٍ معنويٍّ مبعثُه الشُّعورُ بالنَّدامةِ والخزي، فما أيسرَ عليهم أنْ يشطبوا على كلِّ الآياتِ القرآنيَّةِ الصَّريحة ذات الدلالة القاطعة المؤكدة بأنَّه عذابٌ جسديٌّ ومعنوي معاً، وأنَّ لهذا العذاب أدوات ووسائل مادية محسوسة. فإن المهم ما توحي به تصوراتهم وأوهامهم لا ما يُقرِّره كتاب ربهم.

قلت لواحدٍ من هؤلاءِ: إنَّكُم تزعمون أنَّ الشُّعورَ بالخزي هو مصدرٌ عذابِ الكافرين يوم القيامة، ولكنَّ القرآن يقول صراحةً نقيض ما تزعمون، إذ هو يقرِّر أنَّ الخزي فرعٌ عن دخولهم النار، أَلا ترى إلى قوله عزّ وجلّ وهو يعلِّمنا كيفَ ندعوه ونلجأُ إليه: ﴿رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَما لِلظّالِمينَ مِنْ أَنْصارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢] ثم ما علاقة الشعور بالخزي المعنوي بالجلود التي تنضج من شدَّةِ العذاب فيبدلها الله جلوداً أخرى ليستمر العذاب ... وهو ما يقرِّره القرآنُ بعبارةٍ صريحةٍ وقاطعةٍ؟!..

ورأَيْتُ الرَّجلَ يذهبُ في الاعتدادِ برأْيهِ وتصوُّراتهِ، مَذْهباً يجعله غير مبالٍ بكلِّ ما يقوله القرآنُ خِلافاً لتصوراتِه!.. ونحن لا نشك أنَّ هؤلاء إنَّما يعبدون أَفكارَهم وقناعاتهم، تلك هي الحقيقة مهما جاءت مغلَّفةً ومقنَّعة.

والمهم أنْ تكونَ أيُّها القارئ على حذرٍ من أنْ تسري إليك عدوى تأْليهِ الأفكارِ والقناعات الذّاتيَّةِ، فتكونَ بذلك ممّن قالَ اللهُ عنهم: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَواهُ. . . ﴾ [الفرقان: ٤٣].

واجعلْ عونَك في هذا الحذر تَذَكُّرَ الشُّروطِ والضَّوابطِ التي تحدَّثنا عنها لتفسيرِ القرآن.

ثم اجعل قدوتك في ذلك أَصحابَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والتّابعينَ الذين جاؤوا على أثرهم، وتأَمَّل كيف كانوا في غاية الأَدبِ مع كتابِ الله والتَّوقيرِ له، وكيف كانوا يجعلون نصوصَ القرآنِ حاكمةً على آرائهم وتصوَّراتهم، على نقيضِ ما يفعله هؤلاء الذين خلفوا من بعدِهم.

نسألُ اللهَ عزّ وجلّ أن يحرِّرنا من أهوائنا ورعوناتنا وأن يجعلنا عبيداً صادقين له، لا نروغ عن أمرِه ولا نتلاعب ببياناته وأحكامِهِ.

المَكِّيُّ والمَدَنِيُّ

تمهيد

تعريف المكّي والمدني

خصائصُ كلٍّ منهما

الفائدة من معرفة هذا العلم

تمهيد:

ينقسمُ القرآنُ في مجموعهِ إلى (مكيٍّ ومدنيٍّ)، وقد عني العلماء والرّواة عنايةً كُبرى بتمييز هذين القسمين عن بعضهما واستخراج خصائص كلٍّ منهما، لما يترتَّبُ على ذلك من الفوائد التَّشريعيَّةِ والتّاريخيَّةِ التي ستعلمها فيما بعد، بل لقد عني الرّواةُ والباحثونَ بتصنيفِ القرآنِ إلى ما نزل منه في النهار، وما نزل منه في الليل، وإلى مانزل في الحضر، وما نزل منه في الأسفار.

ونحن لن نتناول في هذه العجالة حديثَ اللَّيليِّ والنَّهاريِّ، أو الحَضريِّ والسَّفريِّ من القرآن، لأنّا نرى أنْ فائدةَ ذلك – في هذا المقام – فائدةٌ جزئيَّة ضعيفةٌ، وإنِ كان البحث فيه ينبّهنا إلى مدى اهتمام العلماءِ والرّواة بالقرآنِ وإلى مدى خدمتهم ودراستهم له من شتى الجوانب المختلفة.

تعريف المكّي والمدني:

للعلماء ثلاثةُ اصطلاحاتٍ في تعريف كلٍّ من المكيِّ والمدنيِّ:

أحدها: أنَّ **المكّيَّ** هو كل ما نزل بمكة **والمدني** ما نزل بالمدينة، سواء كان ذلك قبل الهجرة أو بعدها. فالاعتبار على هذا الاصطلاح للمكان وحده.

والثّاني: أن **المكّي** ما وقع خطاباً لأهل مكة، **والمدني** ما وقع خطاباً لأهل المدينة. فالاعتبار على هذا للموضوع وحده.

والثالث: أن **المكّي** ما نزل من قبل الهجرة **والمدني** ما نزل من بعد الهجرة، دون النظر إلى مكان النُّزولِ بالذات. والاعتبار على هذا للزمان وحده.

وهذا الاصطلاح الثالث هو أشهر وأصحُّ ما قيل في هذا الموضوع.

وبناءً على ذلك:

فإنَّ كلَّ ما نزل من القرآنِ من قبل هجرته صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى المدينة يُسمَّى مكيّاً، سواء نزل في مكة أو في الطائف أو في أي جهة أخرى.

وكل ما نزل بعد الهجرة فهو مدني، سواء نزل بالمدينة أو في الأسفار والغزوات، أو في مكة في عام الفتح، أو حجَّة الوداع.

وقد تجد في القرآن سوراً نزلت كلها من قبل الهجرة، كسورة «ق» و«هود» و«يوسف».

وقد تجد فيه سوراً نزلت كلها بعد الهجرة، كسورة «البقرة» و«آل عمران».

وقد تجد فيه سوراً كلها مكيّة إلّا بضع آيات منها، نزلت بعد الهجرة كسورة «الأنعام»، كلها مكّي إلّا ست آيات منها فهي مدنية نزلت بعد الهجرة.

وقد تجد سوراً كل آياتها مدنية إلّا بعض آيات منها فهي مكية، كسورة «الأنفال» و«التوبة».

ولعلَّك تسأل: فكيف تسنَّى للعلماءِ أنْ يعرفوا تفصيل هذا الأمر، وكيف أمكنهم أن يعلموا أنَّ هذه الآية نزلت في مكةَ والأخرى بالمدينة، وأن هذه نزلت في الليل وتلك نزلت في النهار؟

والجواب: أنَّ سبيل معرفة ذلك إنَّما هي الرواية الصحيحة الصادقة، وهي السبيل ذاتها التي وقف بها العلماء على تفسير القرآن بـ(المأثور)، كما مرّ بيانه.

ومما سهّل للعلماء ذلك أن الصَّحابة رضوان الله عليهم عنوا بالقرآن عنايةً فائقةً عجيبةً، فكانوا يؤرِّخونَ كلَّ آيةٍ بوقتِ نزولها ومكانها، وربما اتَّخذوا من الأماكنِ والجبالِ والمفاوز التي يعلمونها، أَماكِنَ ذكرى، بسببِ آيةٍ أو آياتٍ من القرآنِ قد نزلت فيها على رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

عَنِ ابْنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه أَنَّه قالَ: «واللهِ الذي لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ، ما أُنْزِلَتْ سورَةٌ مِنْ كِتابِ اللهِ إِلّا أَنا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلاَ أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتابِ اللهِ إِلّا أَنا أَعْلَمُ فيمَ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنّي بِكِتابِ اللهِ، تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ»[1].

وعَنْ أَيّوبَ السختياني قالَ: سأَلَ رَجلٌ عِكرَمةَ مولى ابن عبّاسٍ عنْ آيةٍ مِنَ القرآنِ، فَقالَ: «نَزَلَتْ في سَفْحِ ذَلِكَ الجَبَلِ» وأَشارَ إِلى سَلْعٍ[2].

وأنتَ خبيرٌ أنّا لا نقصد بما نقولُ جميعَ الصَّحابةِ، بل إنَّ فيهم من لم يتوفر على ذلك، ولكنّا نقصِدُ منهم أولئك الذين اشتهروا بقراءةِ القرآنِ وحفظهِ ونقلِهِ من فمِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهم كثيرون، فكانوا يحفظونَ – مع نطقِ الآيةِ وتلقيها وكتابتها – تاريخ نزولها.

فاشتغل التابعون ومَنْ بَعْدَهم بروايةِ هذا كلّه ونقله، بالطرقِ العلميَّةِ، وحسب قواعد المصطلح، وبذلك وجدَ العلماء بين أيديهم ما أطلق عليه فيما بعد اسم (عِلْم المكيِّ والمدنيِّ).

خصائصُ كلٍّ منهما:

علمت مما قلناه أن الآيات المكيّة من القرآن، هي التي نزلت في صدر الإسلام وهي الفترة التي يحدّها مِنَ الزَّمنِ ثلاثة عشر عاماً، أمضاها رسول الله

---

[1] البخاري : في فضائل القرآن، بَابُ القُرَّاءِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٥٠٢٢)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما (٢٤٦٣).

[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: (٣٢٧/٣) وانظر الإتقان للسيوطي: (٩/١).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مكة معذَّباً مضَّطهداً، يقابلُ الإيذاءَ والاضِّطهاد بالمسالمةِ، مع المُضيِّ في الدَّعوةِ إلى الحقِّ الذي أوحيَ إليه.

وعلِمْتَ أنَّ الآيات المدنيَّة، هي التي نزلت من بعد الهجرة، وهي الفترة التي يحدّها مِنَ الزَّمنِ عشَرَةُ أَعْوامٍ، بنى فيها رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الدولة الإسلامية، حيث تكامَلتْ مُقوِّماتها الإداريَّةُ والدُّستوريَّةُ والقانونيَّةُ.

وعلى هذا، فإنَّكَ تجد خصائصَ كلٍّ من القسمين، مُستَمدَّة من طبيعةِ هاتين المرحلتين التي عاشها النَّبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائماً بأمر الدعوة.

فأنت تجد أن الآيات المكيّة تمتاز بواحد مما يلي:

١- ذكر قصص الأنبياء والأمم الخالية ودعوة النّاس إلى الاعتبار بهم، إلّا ما يتعلَّقُ بالحديثِ عن مريمَ وعيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وقصة ولادته، فقد نزل بعض ذلك في المدينة حِجاجاً لأهلِ الكتابِ.

٢- المناقشةُ والحِجاجُ وعرضُ الأدلة على وجود الله تعالى ووحدانيته وعلى بعث الأجساد مع أرواحها من بعد الموت للحساب.

٣- تثبيت فؤاد الرسول ودعوته إلى الصَّبرِ على الأذى تأسيّاً بمن سبقه من الأنبياء والمرسلين الذين بُعِثوا لدعوة النّاس إلى هذا الدين ذاته.

٤- يغلب على الآيات المكيّة أن تكون قصيرة ذات وقع معين في الأُذن والنفس، تبعث على الرهبة والخشية وتشعر بمعنى الجلال والجبروت، كمعظم السور التي تقرأها في جزء «تبارك» و«عمّ يتساءلون».

فهذه الخصائص تجدها في الآيات المكية وهي من طبيعة المرحلة التي كانت تمر بها الدعوة الإسلامية.

أما خصائص الآيات المدنية فهي ما يلي:

١- البحث في الأحكام والتشريعات المُتعلِّقة بالعبادة والمعاملات والحدود وغيرها.

٢- الأمر بالجهاد والقتال والتَّعليق على الغزوات وما يتعلَّقُ بها من شأن الغنائم والأسرى والمنافقين.

٣- البحث في شؤونِ الحكم والشّورى وضرورة الرجوع فيهما إلى الكتاب والسنّة.

٤- يغلب على الآيات المدنية أن تكون طويلة فيها اللين والهدوء، ووعد المسلمين بالفوز والنصر[1].

فهذه هي خصائص الآيات المدنية، وهي من طبيعةِ المرحلةِ الثّانيةِ التي مرّت بها الدعوة الإسلامية. وبهذا تستطيع أن تُميِّزَ بين السّوَرِ المكيّةِ والمدنيَّةِ من غير الرُّجوعِ إلى روايات العلماءِ والمُفسِّرين في ذلك.

فحسبك أنْ تقرأَ سورة «البقرة» وتطّلِعَ على ما تجمعُ فيها مِنْ أَحْكامِ (الصّيامِ، والحَجِّ، والوَصيَّةِ، والقِصاصِ، والنِّكاحِ، والرَّضاعِ، والطَّلاقِ... وغيرِها) لتَعْلَمَ أَنَّها سورة مدنية.

وحسبك أَنْ تَقْرأَ سورةً مثل سورة «ق» وتقِفَ على ما فيها من الحِجاجِ والنِّقاشِ مع المشركينَ، وما فيها من الأَدلَّة على وجود الله، وما ينبعث من جَرْسِها وفواصِلها وإيقاعِ آياتِها مِنْ معاني الشدَّة والتهديد والجبروت، لتعلم أَنَّها سورة مكية.

---

[1] البرهان للزركشي: (١/١٨٩ ، بتصرّف وزيادة.

الفائدة من معرفة هذا العلم:

تتوقف فوائد علمية كثيرة على معرفة المكّي والمدني من القرآن:

أ – تمييز الناسخ عن المنسوخ:

من أهم فوائد معرفة المكي والمدني تمييز ما يوجد في القرآن الكريم من ناسِخٍ ومَنْسوخٍ، ليُصارَ إلى الأَخْذِ بالنّاسخِ واطراح المنسوخِ – في مجال الأَحكامِ والتَّشريعِ – وإنَّما تتوقَّف معرفةُ ذلك على معرفةِ تاريخ نُزولِ الآياتِ.

واعلم أنَّ وجود (النّاسخ والمنسوخ) في القرآن، اقتضه ضَرورةُ أَخذِ النّاسِ بالتَّدرجِ في الأَحْكامِ الشَّرعيَّةِ؛ كالآيات التي نزلت مُتدرِّجةً في تحريمِ الخمْرِ، وكالآياتِ التي نزلتْ في عُقوبَةِ الزِّنى.

وليس معنى نسخ الحكم في آيات القرآن أنَّ قرآنيَّتها قد سقطت بذلك، بل هي تظلُّ قُرآناً يُتلى ويُتعبَّدُ به، وهي مِنْ كلامِ اللهِ عزّ وجلّ، ولكن يبطل العمل بها لمكان الآية التي نسختها.

وفائدةُ ذلك لنا نحن، التبصّرُ بالمراحل التدريجية التي سار فيها التَّشريعُ، والاطّلاع على الطريقة الحكيمة المثلى التي أَخذَ الله بها عباده فيما سنَّ لهم من أَحكامٍ.

ثم إنَّ (النّاسخَ والمنسوخ) عِلْمٌ خاصٌّ من علومِ القرآن، بَحَثَ وكتبَ فيه علماء التَّشريعِ[1]. ولكنّا نكتفي منه هنا بالذي أَوْضحناه لكَ، والزّيادة عليه شيءٌ يتعلَّقُ بالفقْهِ والتَّشريعِ، وهو مِنْ مَباحِثِ علْمِ أُصولِ الفِقْهِ.

---

[1] فممن أفرده بالتصنيف، الإمام أبو بكر بن العربي (ت: ٥٤٣هـ) وأبو عبيد القاسم بن سلام (ت: ٢٢٤ هـ) وهبة الله بن سلامة (ت: ٤١٠ هـ) وغيرهم. =

ب – ومن فوائد ذلك أيضاً تتبّع مراحل الدعوة الإسلامية، والاطّلاع على كيفية تكامل بنية الفكر والتصور الإسلامي، وهو مما يهم الباحثين في تاريخ التشريع وأطواره.

ج – ومن فوائده أن يُبَصِّر القارئ والمفسر بمعنى الآية ويحجزه عن الخطأ في تفسيرها. ذلك أنَّ مَنْ قَرأَ سورة ﴿قُلْ يا أَيُّها الكافِرونَ﴾ ولم يعلَمْ زَمَنَ نزولها، وهل هي مكيَّةٌ أم مدنيَّةٌ، فإنَّه يحارُ في معناها، وقد يستخرج منها أنَّ المسلمين لا يكلَّفونَ بالجهادِ في أيّ الأحوال، وإنَّما عليهم أنْ يقولوا للآخرين: «لكم دينكم ولي ديني»، فإذا علِمَ أنَّ هذه السورة إنَّما نزلت في مكَّةَ، عندما قال بعض صناديد الشِّرْكِ لرسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: **تعال يا محمد نعبد إلهك يوماً وتعبد إلهنا يوماً**، إذا علِمَ هذا، أدركَ أنَّ هذه السورة إنَّما هي علاجٌ لتلك المرحلة ذاتها، وليست دَليلاً على عدم مشروعيَّةِ الجهاد الذي نزلت فيه آيات كثيرة أخرى في المدينة.

= كما أُفْرِدَ موضوع الناسخ والمنسوخ بالدراسة والبحث، ومن ذلك كتاب (النسخ في القرآن) للدكتور مصطفى زيد.

المُبْهَمُ والمتشابَهُ في القُرْآن

تمهيد

المُبْهَمُ (أَنْواعُه ، أَمثِلته ، الحكمة منه)

المُتَشابهُ (المَقصود به ، حكمه)

تمهيد:

اعلم أنَّ عامّة جملِ القرآنِ وأَلْفاظِه لا تخرجُ عن أنْ تكونَ من قبيلِ المُحكمِ أو المُتَشابهِ أو المُبْهَمِ.

فأَمّا **المُحْكَمُ**، فهو ما عرف تأْويله وفهم معناه وتفسيره[1].

وأَمّا **المُبْهَمُ** فهو ما قد يُعْرَفُ ظاهِرُه ولكنَّ العقلَ يتوقَّفُ في تصوُّرِه وتفصيلِه وإِدْراكِ حقيقتهِ.

وأَمّا **المُتَشابهُ** فهو ما احتمل وجهين أو وجوهاً من المعنى دون وجود ما يعين واحداً منها تعييناً ظاهراً أو قاطعاً.

وقد ذهب بعض الكاتبين إلى إِدْخالِ «المُبْهَمِ» في «المُتَشابهِ» وجعلَ القسمة ثُنائيَّةً، ولكن مذهب من ميَّز بين «المُبْهَمِ» و«المُتَشابهِ» أدقُّ وأوجهُ، إذ إنَّه إذا صحَّ إِدْخالُ بعض أَنْواع المُبْهَمِ – مثل فواتح السور – في المُتَشابهِ فهنالك أَنْواعٌ أُخْرى منه لا تدخلُ فيه، ولا يُمكِنُ أنْ تُعتَبرَ منه، كتلكَ الأَنْواع التي سنتحدَّث عنها.

هذا، وإنَّ عامّةَ آياتِ القُرآنِ مما يتعلَّقُ بالأَوامِرِ والنَّواهي، والإِرْشادِ والوَعْدِ والوعيدِ، **مِنْ قبيلِ المُحْكَمِ**، ولذلك أَطلَقَ الله تعالى عليها اسم «أُمّ الكِتابِ» إذْ قال: ﴿مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ﴾ [آل عمران: ٧] أي أَساسه وجوهره

---

[1] لعلّ هذا أصحّ ما عرف به المُحْكَمُ ، وهو تفسير جابر بن عبد الله رضي الله عنه وعن غيره من الصَّحابة، وانظر تفسير القرطبي: (٤/٩).

الذي يقع به الخِطابِ ويتمّ به التَّكليفُ، وما فيه من المُتَشابهِ والمُبْهَمِ، قليلٌ بالنسبةِ للمُحْكَمِ، وُجِدَ لحكمةٍ باهرةٍ سنذكرُ طرَفاً منها فيما بعد.

ولقد أَطالَ الباحثون عن الحديثِ في مُحْكَمِ القرآنِ ومُبْهمِه ومُتَشابِهِهِ، لا سيما في القسمين الأَخيرينِ منه.

هذا وقد أَفْرَدَ بعض العلماءِ في مبهم القرآن وبيان حكَمِه تآليف، منهم:

الإمام السُّهيليُّ عبد الرحمن بن عبد الله (ت: ٥٨١هـ) وعنوان كتابه (التَّعريف والإعلام فيما أُبهمَ من القرآن).

وابنْ عَسكَر محمد بن علي المالقي (ت: ٦٣٦هـ): وكتابه (التكميل والإتمام في ذيل التعريف والإعلام).

والقاضي بَدرُ الدّينِ محمد بن إبراهيم ابنُ جماعة الكِناني (ت: ٧٣٣هـ) وكتابه (التبيان لمبهمات القرآن).

وجلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) وكتابه (مفحمات الأقران في مبهمان القرآن)، وهو أجمعها وأكثرها فوائد.

كما أَفردَ ابن أَبي الأصبعِ عبد العظيم بن عبد الواحد (ت: ٦٥٤هـ) تأْليفاً في (فواتح السور)[1] – وهو نوعٌ من مُبْهَمِ القرآنِ – وسماه (خواطر السوانح في أسرار الفواتح).

ونحن لن نذكر في هذه العجالة إلّا ما لا بدّ منه، ومن أرادَ التَّوسّع في ذلكَ فليرجِع إلى ما كتبه علماءُ الكلامِ والتَّفسيرِ، وإلى المؤلَّفات الخاصَّة بالبحث في علوم القرآن.

---

[1] انظر الإتقان للسيوطي: (٢/١٠٥ و١٤٥).

المُبْهَمُ
أنواعُه ، أمثِلةٌ له ، الحكمة منه

مُبهَماتُ القرآنِ كلها، تنحصر في نوعينِ، وذلك حسب شدَّة الإبْهامِ وضعْفِه:

النوع الأَوَّلُ: الأَحرُفُ المقطعة التي افتتح بها بعض السور، كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾، ﴿حٰمٓ﴾، ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ فهي أَلْفاظٌ مبهمةٌ، بمعنى أنَّ القارئ لا يفهمُ منها شيئاً وراءَ ظاهر حروفها وما ينطق به منها.

ولقد انقسم العلماء في تأْويل هذه الفواتح إلى مذهبين:

أحدهما – أنَّ لهذهِ الفواتح عِلْماً مستوراً وسرّاً محجوباً استأثر اللهُ بعلمهِ:

وروِيَ هذا القولُ عن أبي بكرٍ الصِّدّيقِ رضي الله عنه، فقد قال فيما روي عنه: «في كلِّ كتابٍ سرٌّ، وسرُّه في القرآنِ في أَوائلِ السّورِ»[1].

ثانيهما – أنَّ لهذه الفواتح مُراداً مَعْلوماً ومعنىً يمكنُ الوصولُ إليهِ بالنَّظرِ والبحثِ:

وإلى هذا ذهبَ جمهورُ الباحثين مِنْ عُلماءِ الكلام «العقيدة» والعَربيَّةِ وغيرهم. وهو المَرويُّ عن ابنِ عبّاسٍ، وعليِّ بنِ أَبي طالِبٍ، وجمعٍ كبيرٍ من الصَّحابةِ[2].

ولأَصحابِ هذا المذهب الثّاني تأْويلاتٌ وتحليلاتٌ مختلفة، لا نستبعد أنْ تكون كلها مقصودة – كما قال ابنُ فارِسٍ وغيره – إذْ هو الشَّأْنُ الغالبُ على

---

[1] انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: (١/١٥٤)، والبرهان للزركشي: (١/١٧٢).

[2] الجامع لأحكام القرآن: (١/١٥٥)، وانظر مشكل القرآن لابن قتيبة : ٦٣، ٦٤.

معظمِ أَلْفاظِ القُرآنِ (تحتمل اللَّفظةُ معاني متعدِّدة كلّها يصحُّ أن يكون مراداً، إذ كلها مِصْداقٌ للحقيقةِ التي تعبّر عنها الآية)[1] وهذا من أَبرَزِ مَظاهرِ الإِعْجازِ في القرآنِ، كما سيأْتي بيانُه إِنْ شاءَ اللهُ.

غير أَنّا نذكرُ من هذه التَّأْويلاتِ أَقرَبها إلى النَّظرِ وأسرعها إلى الذِّهنِ وأكثرها شيعةً وأنصاراً:

– فقد ذهبَ قُطْربُ، والفرّاءُ، والمبرِّدُ، وعامَّةُ علماءِ العَربيَّةِ، وجمعٌ عظيمٌ من المحقِّقينَ إلى أنَّ هذهِ الأَحرُف المقطَّعة إِنَّما افتتحت بها السّورُ، لتدلَّ على أنَّ القرآن ليس إِلّا كتاباً أُلِّفَ من هذِه الأَحرُف الهجائية: (أ، ب، ت، ث .. إلخ)، هي تلك التي تَبنونَ كلامَكُم وأَشْعارَكُم منها، ومع ذلك فلنْ تستطيعوا أنْ تؤلِّفوا من هذِه الأَحرُف كَلاماً مثله[2].

ويدلُّ على سَلامةِ هذا التَّفسير ووضوحِه أنَّ الكلمةَ التي تلي هذه الفواتح تَحمِلُ معنى الكتاب، وتقعُ في معظم الأَحيانِ موقِعَ الخبرِ:

منها قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿الم * ذَلِكَ الكِتابُ﴾

وفي سورة الأعراف: ﴿المص * كِتابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

وفي سورة يونس: ﴿الر تِلْكَ آياتُ الكِتابِ الحَكيمِ﴾.

وفي سورة هود: ﴿الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكيمٍ خَبيرٍ﴾.

---

[1] انظر البرهان: (١/١٨٠).

[2] انظر تفسير القرطبي: (١/٦٧)، وتفسير الفخر الرازي: (١/٦٧) و(١/٢٣٠) والجامع لأحكام القرآن : (١/١٠٥)، والبرهان: (١/١٨٥).

وفي سورة النمل: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

* وإلى جانب هذه الدلالة:

- لا يبعد أنَ تحملَ أَسْراراً معيَّنةً.

- وأَنْ تكونَ قد سيقَتْ مَساقَ القَسَمِ بها.

- وأَنْ يَكونَ موقعُها في صدرِ السّورِ موقِعَ التَّنبيهِ للأَسماعِ والأَذْهانِ إلى الكلامِ الذي يعقُبُها.

النوع الثّاني – جُمَلٌ وأَلْفاظٌ، هي من حيث تركيبُها وظاهر دلالتِها أَمرٌ واضحٌ ومعلومٌ؛ ولكن فيها إبهاماً:

أ – من حيث الزَّمنِ المتعلِّق بها.

ب – أو من حيث تعيينِ أَسماءِ المشارِ إليهم فيها.

ج – أو من حيث نكارة وغرابة المتحدّث عنه فيها.

فهذِه ثلاثةُ أصنافٍ للإبهامِ في نوعه الثّاني، نذكرُ لكلِّ صنْفٍ منها مِثالاً:

مثال الصنف الأَوَّل:

الآياتُ المُتعلِّقةُ بقيامِ السّاعةِ، من مثلِ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج: ١- ٢] الآية.

فالجُمَلُ التركيبيَّةُ في هذهِ الآيةِ واضحةُ المعنى، ولكن فيها إبهاماً تتطلَّع إلى كشفِه النَّفسُ، وذلكَ من حيث تحديد الزَّمنِ الذي ستقومُ فيه الساعةُ – أي يوم القيامة – ولا شكَّ أَنَّه أمرٌ مبهمٌ ستَرَهُ اللهُ حتى عن علمِ الأنبياءِ والمقرّبين إليه.

ومثال الصنف الثّاني:

قوله تعالى: ﴿واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالحَقِّ إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

فالجملُ والكلماتُ في هذه الآية واضحةُ الدلالةِ والمعنى، ولكنَّ فيها إبهاماً من حيث تعيين المقصود بـ(وَلَدَيْ آدمَ) فمَنْ هُما ولدا آدم اللَّذانِ كانَ مِنْ شأْنِهما ما أُخبر به عنهما؟ وهو إبهام كشفتِ عنه السُّنَّةُ وما وصلَنا مِنْ تفسيرِ الصَّحابةِ رضوان الله عليهم، فالمقصود بـ(ولَدَي آدمَ) في الآية (قابيل، وهابيل) وهما ولد آدم لصلبِهِ.

ومثال الصنف الثالث:

قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجوجُ وَمَأْجوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلونَ * واقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ فَإِذا هيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذينَ كَفَروا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا في غَفْلَةٍ مِنْ هَذا بَلْ كُنَّا ظالِمينَ﴾ [الأنبياء: ٩٦- ٩٧].

فمَنْ هم يأجوجُ ومأجوجُ؟ ومتى يَحينُ وقت ظهورهم؟ وما هو شأنهم وعملهم؟

ذلكَ أَيضاً من المُبْهَمِ الذي لم تكشفْ عنه الآية بأَكثر مِنَ الإِخْبارِ عنه، وأنَّه من الغيبِ الذي سيقَعُ في حينِه المقدَّر له في علمِ اللهِ.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذا وَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النّاسَ كانوا بِآياتِنا لا يوقِنونَ﴾ [النمل: ٨٢].

فما هي هذه الدّابَّةُ التي ستخرجُ إلى النّاس تكلِّمُهم وتحدِّثهم؟

لا تزيدُ الآيةُ على الإِخْبارِ بهذا الغيبِ الذي سيقَعُ، وتفصيلُ الأمرِ فيهِ مِنَ المُبْهَمِ الذي لا يَكِشفُ عنه إِلّا الواقعُ الذي يأْتي في حينِه.

فهذهِ أمثلةٌ لأَصْنافِ المُبْهَمِ الذي وقعَ في القرآنِ، وإِذا تأَمَّلْتَ فيها عَلِمْتَ:

– أنَّ منها ما أَمكنَ تفسيرُه وكشفُه عن طريقِ الوقوفِ على تفسيرِ السُّنَّةِ له.

– ومنها ما بقيَ مُبْهماً مَكْنوناً في غيبِ اللهِ عزَّ وجلَّ، لا يكشفه إِلّا الواقعُ الذي أَخبرتْ عنه الآياتُ.

حِكَمُ وجودِ المبهمِ في كتابِ اللهِ:

بقيَ أنْ تعلَمَ لوجودِ مثل هذه المبهماتِ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ حِكَمٌ منها:

أ – أَمّا الإِبهامُ المتعلِّقُ بـ(فواتحِ بعضِ السّورِ)، فقد علمت مما ذكرناه، أنَّ مذهب جمهورِ العلماءِ والباحثين أنَّ لهذه الفواتح معنًى يمكن الوصولُ إليهِ بالنَّظرِ والبحثِ، فالإبهام فيها إِنَّما هو بمعنى الغُموضِ والخفاءِ اللَّذين يُمكِنُ إِزالتهما والوصول إلى ما وراءهما، وليس بمعنى انغلاق اللَّفظِ على المعنى واستحالة وصولِ القارئ أو المتدبِّر إلى المقصودِ.

غير أنَّك قد تسأَلُ: ففيم هذا الغموض والخفاء وإِنَّما هو كتاب أُنزل للقراءة والفهم؟.

فالجواب: أنَّ القرآن – كما يقول ابن قتيبة – إِنَّما نزلَ بأَلْفاظِ العربِ ومعانيها ومذاهبها في الإِيجازِ، والاختصارِ، والإِطالةِ، والتَّوكيدِ، والإِشارةِ إِلى الشيءِ، وإِغْماضِ بعضِ المعاني حتى لا يظهر عليه إِلّا اللَّقِنُ – سَريع الفَهْمِ – وإِظهارُ بعضها وضرب الأَمثالِ لما خَفيَ.

ولو كانَ القرآنُ كلُّه ظاهراً مكشوفاً حتى يستوي في معرفته العالـمُ والجاهِلُ لبَطُل التفاضلُ بين النّاسِ وسقطَتِ المِحْنَةُ وماتت الخَواطِرُ[1].

ولا شكَّ أَنَّ من فَوائدِ ما تلبَّستْ به هذه الفواتح من الإِبْهامِ، ما تراه من الأَبحاثِ المختلفةِ الجليلةِ، التي أَقامَها العلماءُ على هذه الفواتح، سواءٌ منها:

- ما يتعلَّقُ بطبائع هذه الحروف ووجه اتِّساقِها مع بعضها.
- وما يتعلَّقُ بالعلوم المستخرجة منها والدلالات المشيرة إليها.

حتَّى غدت هذه الفواتح مصدَرَ علْمٍ قائمٍ برأسِهِ من علومِ القرآنِ.

وإِنَّما اندفَع العُلماءُ الباحثون إلى استخراج كلِّ ذلكَ والبحث فيه بسبب ما يكتنفها من الغَرابةِ والغموضِ الحامِلَيْنِ على النَّظَرِ والفِكْرِ.

وإِنَّما يأْتي الكشفُ والإِبْداعُ من وراءِ الحاجةِ وضيقها. وإِنَّما يقَعُ الخمولُ والبَلادَةُ مِنَ الشُّعورِ بالاستغناءِ والكِفايةِ.

و**الإِعجازُ القرآنيُّ في جملتِه**، قائمٌ على البحثِ والنَّظرِ في أمورٍ منها الخفيُّ والجليُّ، ومنها الدَّقيقُ والأَدقُّ، واللَّطيفُ والأَلطفُ، وإِلّا فكيف تنبعُ المعاني للجملةِ الواحدةِ منْ وراءِ بعضِها؟

وكيف تأتي الدَّهشَةُ لها إِذا كان جميعها من الظهور بحيثُ تنكشفُ لكلِّ قارئٍ وناظرٍ مهما تفاوتت درجةُ العلمِ ورتبةُ الفَهْمِ؟

واعلم أَنَّنا إِنَّما نَصْدُرُ في هذا الذي نقول، عنِ المذهَبِ الذي تمسَّك بهِ جمهورُ الباحثين من أنَّ ما قد يوجَدُ في القرآنِ من المُبْهَمِ أو المُتَشابهِ يمكنُ

---

[1] انظر تأْويل مشكل القرآن لابن قتيبة: ٦٢.

للرّاسخينَ في العلمِ أنْ يفهموا منه فَهْماً صحيحاً ويقَعوا منه على علمٍ، حاشا المغيَّبات التي أَشارَ القرآنُ إليها أَو تحدَّثَ عن طرفٍ منها وأَبهمَ منها طَرَفاً آخرَ.

ونقول في هذا ما قاله ابن قتيبة في كتابه، (تأْويل مُشْكلِ القرآنِ):

(ولسنا ممّنْ يزعُمُ أنَّ المُتَشابهَ في القرآن لا يعلمه الرّاسخونَ في العلمِ، وهذا غَلَطٌ من مُتأَوِّليهِ على اللُّغةِ والمعنى، ولم يُنزِل اللهُ شيئاً من القرآنِ إلّا لينفع به عبادَه ويدلّ به على معنى أَرادَه، فلو كان المُتَشابهُ لا يعلَمُه غيرُه، لَلَزِمَنا للطاعِنِ مقالٌ وتعلَّق علينا بعلّة.

وهل يَجوزُ لأَحدٍ أنْ يقولَ: رسولُ اللهِ لم يكن يعرفُ المُتَشابهَ؟! وإذا جازَ أنْ يعرِفَه معَ قولِ الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ﴾ [آل عمران: ٧] جازَ أنْ يعرِفَه الرَّبانيّونَ مِنَ الصَّحابةِ، فقد عَلَّمَ عليّاً رضي الله عنه التَّفسيرَ، وَدَعا لابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما فقال: «اللهمّ علِّمه التَّأْويل وفقِّهْهُ في الدّيْنِ»).

ثم قالَ ابنُ قُتَيْبةَ:

(وبعدُ فإنّا لم نرَ المُفسِّرينَ توقَّفوا عنْ شيءٍ مِنَ القُرْآنِ فقالوا: هذا لا يعلَمُه إلّا الله، بل أَمرّوه كله على التَّفسيرِ، حتى فسَّروا الحروفَ المقطَّعة في أَوائلِ السّورِ مثل: ﴿الر﴾، و﴿حم﴾، و﴿طه﴾، وأشباه ذلك.

فإنْ قالَ قائلٌ: كيف يجوزُ في اللُّغةِ أَنْ يعلَمه الرّاسِخونَ واللهُ تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران: ٧] وأنتَ إذا أَشرَكْتَ الرّاسِخينَ في العلمِ انقَطَعوا عن ﴿يَقُولُونَ﴾ وليس ههنا واو نسقٍ توجِبُ للرّاسِخين فِعْلَيْنِ، وهذا مذهبُ كثيرٍ من النَّحويينَ في هذِه الآية، ومن جهتِه غَلِطَ قومٌ من المُتأَوِّليْنَ؟

قلنا له: إنَّ ﴿يَقولونَ﴾ ههنا بمعنى الحال، كأنَّه قالَ: والرّاسِخونَ في العلمِ قائلين: آمَنّا بهِ. ومثلُه في الكلامِ: لا يأتيك إلّا عبدُ اللهِ وزيدٌ يقولُ: أَنا مَسرورٌ بزيارتِك، يريد لا يأتيكَ إلّا عبدُ اللهِ، وزيدٌ قائلاً: أَنا مَسرورٌ بِزيارَتِك)[1].

ب – وأَمّا الإبهام في النوع الثّاني: وهو الجُملُ المفهومةُ من حيث ظاهر دلالتها وتركيبها، ولكنَّ فيها إبْهاماً من حيث تعيِّنِ الزَّمنِ أو تعيِّنِ الأَسماءِ أَو نكارةِ المُتحدَّثِ عنه وغرابته؛ فمردُّ ذلكَ إلى أَحَدِ أَسبابٍ ثلاثةٍ:

السبب الأَوَّلُ: عدمُ تعلُّقِ أيِّ غرضٍ بتفصيله والكشفِ عنه، كالذي يكون في مساق ذِكْرِ بعضِ القَصَصِ والأحداثِ، من إبْهامِ أَسماءِ الأَشْخاصِ وعدم تعيين الأمكنة أو الأزمنة المُتعلِّقة بها. فهذه القصصُ والأحداثُ إنَّما تُساقُ للاتِّعاظِ بها وأخذِ العبرة منها. وتحقيق ذلك يتوقَّف على عرضِ الجانب الذي يحملُ معنى العِظَةِ والعِبْرَةِ، دون غيره، مما يُشتِّتُ الذِّهنَ عن المطلوبِ ويُبْعِدُ المتأَمِّلَ عن القصْدِ. ولذلك لم يتعلَّقُ الغرضُ القرآنيُّ بالكشفِ عن اسمِ وَلَدي آدم وهويتهما في الآية المذكورة، ومن أَجلِ ذلِكَ أيضاً يقوم أسلوبُ القصَّة في القرآنِ على توجيهِ القارئ إلى مكانِ العِبرَةِ منها وتحويل ذهنِه عن اللَّحاقِ بجزئياتها وهوامشها التّاريخيَّة المُجرَّدة.

السبب الثّاني: أَنْ يكونَ هذا الأمرُ المُبْهَمُ من الغيوبِ التي استأثرَ اللهُ تعالى بعلمِ أَزْمنَتِها وآجالِها. وأنت تعلمُ أنَّ حكمةَ الله تعالى اقتضت أنْ يُخفي عن عبادهِ – لمصلحةٍ عظيمةٍ باهرةٍ – كثيراً من الحقائقِ المُتعلِّقةِ بالغيبِ الذي لم

---

[1] تأْويلُ مُشْكِلِ القُرْآنِ: ٧٣، ٧٤.

يقع بعدُ. وأَهمُّها أجَلُ الإنسانِ الذي تنتهي عنده حياتُه، وأجلُ الدنيا الذي تقومُ عنده الساعةُ، وما سيجنيه من ربحٍ أو خسرانٍ وسعادةٍ أو شقاءٍ.

فكلُّ الآياتِ التي تتعلَّقُ بمثلِ هذِه الأُمورِ، يظلُّ فيها هذا الجانبُ مُبهماً، لأنَّ الغرضَ الدّينيَّ قد تعلَّقَ ببقائه كذلكَ، ولأنَّ حقيقةَ العبوديَّةِ للهِ عزَّ وجلَّ تقتضي ذلك. فمِنْ هذا القبيلِ قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وهكذا، فالحقيقةُ الدّينيَّةُ في مجموعِها قائمةٌ على هذا النَّوْعِ مِنَ الإبْهامِ: إبهام الأمورِ الغيبيَّةِ من حيث عدم كشفِ أَزْمنَتِها وتعيين كيفيتها وآجالها. وذلك ليتلبس الإنسان بحقيقة «الإيمان بالغيب» الذي تعبده الله عزّ وجلّ به.

السبب الثالث: كون الأمرِ المتحدَّثِ عنه لم يقع بعد. ومن شأنِ الخبرِ المتحدَّث عنه مما لم يقع بعد، ولم يقع له نظير أو مثيل فيما مضى، أنْ يظلَّ جانبٌ كبيرٌ فيه مَبْهماً، لا يكشفُه إلّا الواقعُ والحقيقةُ، وقد أَخبَرنا اللهُ عزَّ وجلَّ عن أمورٍ غريبةٍ ستقعُ في المستقبلِ، وهي مما لم يقَعْ نظيرٌ لها فيما مضى، كـ(الإخبار عن دابة الأرض، ويأجوج ومأجوج) في الآيات السابق ذكرها، فمِمّا لا ريبَ فيه أنَّ الصّورةَ الجليَّةَ لمثل هذِه الأمورِ في الذِّهْنِ لا تتوفَّر بمُجرَّدِ الوصفِ والإخبارِ، وإنَّما تأتي لدى المشاهدةِ والعيان، فالإبهامُ في هذه الحالة أمرٌ طبيعيٌّ لا إشْكالَ فيه، اقتضاهُ عدمُ وقوع المُخبَرِ عنه بعدُ.

المُـتَشابهُ
المَقصـود به ، حكـمه

وإنَّما نقصدُ بـ(المُتَشابهِ): تلكَ الجُملُ التي تَنازَعَها أَكثرُ مِنْ معنىً واحد، إذ كانَ اللَّفظُ أو التركيبُ صالحاً للدَّلالةِ على كلٍّ منها دونَ أنْ يكونَ صالِحاً للدَّلالةِ عليها كلها بآنٍ واحدٍ، فيحارُ المُفسِّرُ في المعنى المرادِ منها، لأنَّ كلها شبيه بها وقريب، ولقد قيل بعد ذلك لكل ما غَمُضَ ودقّ: مُتشابهٌ، وإنْ لم تَقَعِ الحيرةُ فيه من جهةِ شبهِهِ بمعنيين، ولكنَّ الطَّريقةَ التي سلكناها في التَّفريقِ بين (المُبْهَمِ والمُتَشابهِ) تقتضينا أن نقصر اسم «المُتَشابهِ» على معناه الأساسي الأَوَّلُ في هذا المقام.

والآيات المُتَشابهِة بالمعنى الذي ذكرناه، إنَّما وقعَ فيها ذلكَ من جهةِ المجازِ واستعمالِه، فبسببِهِ قد يقعُ الغلَطُ ويكثرُ التَّأْويلُ وتختلفُ المذاهبُ والأقاويلُ.

أنواع المتشابه:

يتنوَّع المُتشابهُ إلى نَوعيْنِ:

– فأَمّا النوع الأَوَّلُ منه فالخَطْبُ فيه يسير، وأَمْرُ التَّأْويل فيه واضِحٌ، ووجه المجاز فيه غير خفيٍّ.

وهذا النوعُ ينطبق على عامّة الآيات التي تتجلَّى فيها البَلاغةُ القرآنيَّةُ عن طريق التَّصويرِ وتجسيمِ المُجرَّداتِ من المعاني، فلا يكادُ يقعُ في أَمْرِها اشتباهٌ إلّا بالنسبةِ لمن كانت بضاعَتُه في العَربيَّةِ ناقصة وضعيفة، ومن أمثلته:

قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ﴾ [الرحمن: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢].

وقوله تعالى عن بعضِ الكافرينَ الذين أُهْلِكوا: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩].

فالمقصود بالآية الأوْلى: سنَقصد إليكم بعد طولِ التَّرْكِ والإِهْمالِ.

والمقصود بالآية الثّانية: الكناية عن مدى سعتها، مع عدم أي مانع من أنْ يكونَ الأمرُ على الحقيقة فيسأَلُ اللهُ النارَ ويُنطِقُها بالجواب، تَهويلاً للأَمْرِ وكشفاً عن جليلِ قدرتهِ وتنبيهاً إلى عدمِ وجود أي قيمةٍ حقيقيَّةٍ لمعنى الأَسبابِ والمسببات الكونية.

والمقصود بالآية الثالثة: بيان شدَّة الأمرِ على النّاس إِذ ذاك.

والمقصود بالآية الرابعة: أَنَّه لم يبكِ عليهم باكٍ ولم يجزع لفقدهم جازع.

وهذه المعاني والدلالات المقصودة بهذه الآيات مما لا يشكُّ به من له أدنى إلمامٍ بالعربية، فضلاً عن المتمكِّن من ناصيتِها.

- وأَمّا النَّوعُ الثّاني فهوَ الذي وقع بصددِه الكلامُ والبحثُ، واختلفت حوله آراء العلماء فيما يبدو، وينطبِقُ هذا النَّوعُ على بعض آياتِ الصفات الإلهية، ومن أمثلتها: قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].

ومحلُّ الشُّبهةِ في مثلِ هذه الآيات أَنَّ ظاهِرَها يثبت لله تعالى جوارحَ ومَكاناً، وهو مُخالِفٌ لِصريحِ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ومَوقِفُ العلماءِ والمُفسِّرينَ من مثلِ هذه الآيات ينبثق عن سلوكِ مرحلتين اثنتين:

المرحلة الأوْلى منهما تُمثِّلُ منطَلَقاً متَّفقاً عليه لم يقع بينهم في ذلك خلاف، وهو تفسير المُتَشابِهِ على ضوء المُحْكَمِ من الآيات القرآنية، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] من المُحْكَمِ الذي لا شُبْهَةَ في معناه، فاتَّفقوا على أنَّ اللهَ تعالى لا يشبهُهُ شيءٌ من المخلوقاتِ وصفاتِهم وأحوالِهم.

المرحلة الثّانية منهما محلُّ خلافٍ في الظّاهِرِ، وهو تأْويل آيات الصفات إلى المجاز أو تفسيرها على الحقيقة:

* فالسَّلفُ الأول من العُلماءِ والمُفسِّرينَ آثَروا إِبْقاءَ اللَّفظِ على الحقيقةِ معَ الإيمانِ بأَنَّ اللهَ تعالى لا مثيل له، وبأنَّه منَزَّهٌ عن صفاتِ النَّقصِ، ووكلوا تحليلَ الأمرِ في ذلكَ وشرحِه إِلى الله عزَّ وجلَّ.

أَخرجَ أَبو القاسمِ اللَّالكائيُّ في (سننه) عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها أَنَّها سُئِلَتْ عَنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] فَقالَتْ: «الكَيْفُ غَيْرُ مَعْقولٍ، والاِسْتِواءُ غَيْرُ مَجْهولٍ، والإِقْرارُ بِهِ مِنَ الإِيْمانِ، والجُحودُ بِهِ كُفْرٌ»[1].

---

[1] ينظر الإتقان للسيوطي: (١٤/٣).

وسُئِلَ الإمامُ مالك رضي الله عنه عَنْ هَذِهِ الآية؟ فَقالَ: «الكَيْفُ غَيْرُ مَعْقولِ، والاستِواءُ غَيْرُ مَجْهولٍ، والإيْمانُ بِهِ واجِبٌ، والسُّؤالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ»[1].

* وأَمّا الخَلَفُ منهم – وهم الذين جاءوا في عصرِ ازدِهارِ تَدوِيْن العلومِ، واتِّساعِ حلقاتِ البحثِ والمناقشاتِ العلميَّةِ – فقدْ آثروا أَنْ يَحملوا أَلْفاظَ هذه الآياتِ على مَحْمَلٍ يليقُ بذاتِ الله تعالى مع التزامِ الدَّلالةِ اللُّغويَّةِ والخضوعِ لقواعِدِ الأخذِ بالحقيقةِ والمجازِ وعدمِ الخروجِ عليها أو التَّكلُّفِ في مَعالجَتِها:

ففسَّروا (الاستواء) بتسلُّطِ القوة والسُّلْطانِ.

وفسروا (اليد) بالقدرة.

وفسَّروا (العين) بالعناية والرِّعاية.

وهو تفسيرٌ تدلُّ عليه طبيعة الاستعمال اللُّغوي وجملة الأسلوب القرآني.

وإِنَّما قلنا: «إن الخلاف في الأمر الثّاني خلاف في الظاهر فقط» لأنَّ المآلَ فيما ذهب إليه كلٌّ من السَّلفِ والخَلفِ واحدٌ، ما دام الجزءُ الأَوَّلُ من التَّفسير محلّ اتفاقٍ وهو أَنَّه عزَّ وجلَّ لا يشبِهُه شيءٌ من مخلوقاتِه، وأنَّه منزَّهٌ عن جميع صفاتِ النَّقصِ، فالخِلافُ شكليٌّ، ينحصر في طريقة تفسير هذه الأَلْفاظ التي تدور بين

تركها على حقيقتها مع تنزيه الله تعالى على الكيف والنَّقص

أو

تأويلها على المجاز لتتَّفِق لغوياً مع تنزيه الله تعالى عن الكيف والنَّقص.

---

[1] أخرجه أبو نُعيمٍ في حلية الأولياء: (٦/٣٢٥ – ٣٢٦) والبيهقيُّ في الأسماء والصِّفات (٢/١٥٠ – ١٥١).

ولقد شنَّع بعضُهم كثيراً على طريقةِ الخلف هذه، وعدَّها جانحةً جنوحاً حقيقياً عن مذهب السَّلف، وأَنكرَ على سائر علماء الخلف – وهم الذين جاؤوا بعد القرن الثالث – استعمال هذه الأَلْفاظ القرآنية في غير حقيقتها لا سيما المُتعلِّقة بذات الله تعالى وصفاته.

ولكنّا نجزم بأنَّ الخطْبَ في ذلك يسيرٌ، والخلاف أهون من أنْ يكونَ جنوحاً لهؤلاء الأعلامِ، عن مبادئ العقيدة الإسلاميَّة وأُصولِ التَّفسير.

والعجيب أنَّ هذا المعترض بعدَ كلِّ هذا التَّشنيعِ يتأَوَّل (**الوجه**) في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] بالجِهةِ، ويقول: «إنَّ معنى الآية: كُلُّ شيءٍ هالكٌ إِلّا ما أُريدَ به جهة الله تعالى!.. »[1].

فلماذا أَخرجَ الكلمةَ من حقيقتِها إلى المجازِ؟

ولماذا يحرِّم على علماء الخلف ما يراه مباحاً له؟

وليته إذْ تأَوَّل على خلافِ مبدئه ومذهبه، فسّرها بالذّاتِ كما فعلَ جمهورُ المُفسِّرينَ بل أصرَّ على أَنْ يتأَوَّلها بالجهة والمكان!!..

هذا وليس لنا شأنٌ، بتلك الطوائف التي ضلَّت وشذَّت، ممَّن يقال عنهم (المُعطِّلةُ والمُجسِّمة)، إذْ لا يُقامُ لهم أيّ حسابٍ فيما يتعلَّقُ بكتابِ اللهِ تعالى وتفسيرِه، وليسوا منْ كتابِ الله تعالى – محكمه أو متشابهه – في شيءٍ، وإِنَّما هم تصوروا الذّاتَ الإلهيَّةَ كما صوّرتُه أخيلتهم المُجرَّدة، ثم استنهضوا آياتٍ من كتاب الله تعالى إلى تلك الأخيلة لتُصدِّقها وتؤمن لهم بها، وأنَّ لآيات الله الباهرة أن تدلّ إِلّا على

---

[1] مجموع فتاوى: (٤٢٧/٢) وما بعدها.

الحـقِّ الواضـحِ المنـير. فعـادوا يعكفـونَ علـى أصـنامٍ لهـم أقاموهـا في رؤوسـهم بدلاً من أنْ ينصبوها أَمامَ أعينهم.

إِعجـــاز القـــرآن

المُـعجِزة لغة واصطلاحاً

مزايا الإِعْجاز القرآني

النَّظرّياتُ العامَّةُ في بيانِ إِعْجازِ القرآنِ

تفصيل أوجه إِعْجاز القرآنِ وشمولها

هذا الموضوعُ هو جوهرُ دراساتِ القرآنِ، ولبابُها، وهو أهمُّ قضيَّة، يواجهها العقلُ الحديثُ، والمثقَّف في العصر الحاضرِ، وهيَ ترتبط ارتباطاً بالغاً في غاية التوثق والقوَّة بثقافة المسلم العامة، واللُّغوية خاصَّة.

على أنَّ قضيةَ إِعْجازِ القرآنِ تشمل بناءَ الإنسان العربي أو المسلم، من حيث هو إنسان قادرٌ على تذوُّق الجمال في الصورة، أو في الفكرِ، أو في الصّورةِ والفكرِ جميعاً.

ومن هنا كانت معرفةُ إِعْجازِ القرآنِ، وأَسرارِ هذا الإِعجاز، وجوانبه في القرآنِ أَمراً لا يَستغني عنه الدّارسُ للعلوم الإسلاميَّةِ، لأَثرِهِ الكبير في ثقافتهِ، وفي تكوينِ ذوقهِ الأَدبيِّ، وإدراكه الجمالي.

والمُعجِزة: مأخوذةٌ في اللَّغةِ من العجزِ، وهو ضدُّ القدرة، وأَعجزَهُ الشَّيءُ، صيَّره عاجزاً عنه، فهو معجز، ومعجزة، قال الحافظ ابن حجر: «وسُمّيت المُعجِزة لعجزِ من يقعُ عندهم ذلك عن معارضتِها، والهاء فيها للمبالغةِ»[1].

أما المُعجِزة في الاصطلاحِ فهي: «أمر يُجريهِ اللهُ على يدِ النَّبيِّ يفوقُ طاقاتِ البشرِ، ويخرقُ قوانينَ الطبيعةِ وخواصِّ المادَّة، يتحدَّى النَّبيُّ به قومهُ، فلا يقدرُ أَحدٌ على معارضتهِ»[2].

ويُطْلَقُ على المُعْجِزاتِ (دلائل النُّبوةِ) و(أَعلامُ النُّبوةِ)، ونحو ذلك، وهذه الأَلفاظُ إذا سُميَّتْ بها آياتُ الأَنبياءِ كانت أَدلّ على المقصودِ من لفظِ

---

[1] فتح الباري (٦ /٣٧٥).

[2] بيِّنات المُعجِزة الخالدة ص١٩.

المُعْجِزاتِ، ولهذا لم يرِدْ لفظُ (**المُعْجِزاتِ**) في القرآنِ الكريم، ولا في الأَحاديثِ النَّبويَّةِ، وإنَّما وردَ فيهما (**الآيةُ**)، و(**البيِّنةُ**) و(**البُرهانُ**)[1].

وتتنوَّع المُعْجِزاتُ كثيراً من نبيٍّ إلى نبيٍّ، ومن قومٍ لقومٍ، وذلك بحسب حالِ القومِ الذي يُبْعَثُ فيهم النَّبيُّ، ويُرْسَلُ إليهم الرَّسولُ، فيجعلُ اللهُ تعالى المُعجِزةَ لكلِّ نَبيٍّ وثيقةَ الصِّلةِ بخبرةِ قومِهِ، فكانَ كلُّ نَبيٍّ يتحدَّى قومهُ بأَفضل ما أَتقنوهُ وبرَعوا فيه، ليعلَموا أنَّ هذهِ المُعجِزة ليست مما أَتقنوه ولا يمكن أنْ تبلُغَها

---

[1] لوائح الأنوار البهية للسفاريني (٢/٢٧٨).

ونرى من المهم هنا بيان الفرق بين المُعجِزة والكرامة والسحر:

أما **المُعجِزةُ**: فهي أمرٌ خارقٌ للعادة يُجريه اللهُ تعالى على يدِ أنبيائه. كما عرفنا.

وأما **الكَرامةُ**: فهيَ ما قد يقعُ على يدِ بعض الأَتقياءِ الصّالحينَ من أمرٍ خارقٍ. مثلَ ما حدَثَ للسَّيدةِ مريم من تأْييدِ اللهِ تعالى بحضورِ فاكهةِ الشِّتاءِ في الصَّيفِ وبالعكس. وغير ذلك. وشرط الكرامة صدقُ الاتِّباعِ للشرعِ، لأَنَّها في الواقعِ تأييدٌ منَ اللهِ تعالى للشَّرعِ وللنَّبيِّ نفسِهِ.

وأما **السِّحرُ**: فهو أَبعَدُ شيءٍ عن المُعجِزةِ والكرامةِ، بل عن أنْ يكونَ أَمراً خارقاً للطبيعةِ حقيقةً، وإنْ كان فيه غرابةٌ وعجائب. ويظهر الفرقُ فيه في شخصِ الساحرِ، وفي عمل السحرِ نفسهِ:

فمما يفترق به السّاحرُ عن الوليِّ ركوب متنِ الفسوقِ والعصيان، حتى ترى الساحر أكذبَ الناسِ وأشدهم شرّاً.

– وأما عملُ السِّحرِ فقد يكون مستغرباً طريفاً، لكنَّه لا يخرجُ عن طاقةِ الإنسِ والجنِّ، بل هو أمرٌ مقدورٌ عليه، لأنه يترتَّبُ على أسبابٍ إذا عرفها أحدٌ وتَعاطاها صنعَ مثلها أو أَقْوى منها، لذلك ما إنْ يواجَهُ السِّحرُ بالحقيقةِ حتى يذهبَ سدًى، ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حيث أَتى﴾، ومن هنا خضعَ سَحَرةُ فرعون لموسى عليه السلام، لأَنَّهم وهم أعرفُ الناسِ بالسحرِ، كانوا أكثرَ الناسِ يقيناً بحقيَّة معجزتِهِ، وصدْقِ نبوَّتِهِ، فما وسعهم أمامَ جلالِ المُعجِزةِ الإلهيةِ إلّا أنْ خرّوا سُجَّداً، وقالوا: ﴿آمَنّا بربِّ هارونَ وموسى﴾.

طاقتُهم، فيكون ذلك أدلّ على عجزهم وصدق نبيِّهم، فيبادر إلى الإيمانِ أَهلُ الصِّدقِ والاستعدادِ للحقِّ، فلمّا كان قومُ موسى برَعوا في السِّحرِ وتفوَّقوا كانت معجزةُ موسى عليه السلام هي العَصا تنقلب حيَّةً وتلقفُ ما يأَفِكونَ، واليد يضمُّها إلى جناحه فإذا هي بيضاءُ للنّاظرينَ ...

ولما بُعِثَ عيسى عليه السلام في قومٍ برَعوا في الطبِّ جعلَ اللهُ معجزتهُ إحياءَ الموتى، وإبراءَ الأَكمهِ والأَبرصِ.

ولما كانَ العربُ قومَ بيانٍ وَلَسَنٍ، يُقادونِ بِمَقولِهِمْ كانت معجزةُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم الكبرى هي القرآنُ الكريمُ.

وتنقسمُ المُعْجِزاتُ إلى قسمينِ:

القسم الأول - **المُعْجِزاتُ الحسيَّة:**

مثل معجزةِ الإسراءِ والمعراجِ، وانشقاقِ القمرِ، ونبعِ الماءِ من بينِ أصابعِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم حتى روى المئين، وتكثير الطعام القليل، وقلب الحصى حية، وإحياء الموتى...

القسم الثاني - **المُعْجِزاتُ العقليَّةُ:**

مثل الإخبار عن المغيباتِ، والقرآن الكريم.

الإعلام بإعْجاز القرآنِ:

وقد أُعلِنَ إعْجازُ القرآنِ على العالمِ من أَعظمِ مصدرٍ ثابتٍ وهو (القرآنُ) نفسه، فقد نادى على رؤوسِ الأَشْهادِ وفي كلِّ جيلٍ وقَبيلٍ يتحدَّى الناسَ بل العالمَ أنْ يأتوا بمثلهِ، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقولونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنونَ * فَلْيَأْتوا بِحَديثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانوا صادِقينَ﴾ [الطور: ٣٣- ٣٤].

فقد كبَّلهُم بالعجزِ عن هذا التَّحدي فلم يفعلوا ما تحدّاهم، فجاءهم بتخفيفِ التَّحدي فتحدّاهم بعشرِ سورٍ فحسب في هذه الآية: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣-١٤].

ثم أَرْخى لهم حبل التَّحدي، ووسَّع لهم غاية التَّوسعةِ فتحدّاهم بسورةٍ واحدةٍ، أي سورةٍ ولو من قصارِ السّوَرِ، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

وقد مكثَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بمكَّةَ ثلاثةَ عشَرَ عاماً والمسلمونَ قليلٌ مستضعفون، وكان الوحي يتتابعُ وهو يتحدّاهم، ويفضحُ عجْزَهم الذي استبانَ وظهرَ لكُلِّ من له عينٌ تُبصِرُ، وأُذُنٍ تَسْمَعُ، وعَقلٌ يعي، وقد قطعَ الله عليهم بل على الثَّقلينِ كلهم منافذَ اللَّدَدِ بهذا الإعلان الحاسم: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقد أمعنَ القرآنُ في هذا التَّحدي وأكَّده في سورةِ البقرةِ المدنيَّةِ، فتحدّاهم ثانيةً بسورةٍ منه، وأكَّد عجزهم عن ذلك بالإعلانِ على العالمِ أنَّهم لن يستطيعوا ذلك، ولن يفعلوه أبداً: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣- ٢٤].

فكـأَنَّ هـذا الـبلاغ القـاطع الـذي لا معقِّـب لـه هـو الغايـةُ الـتي انتهـى إليهـا أمـر هـذا القـرآن، وأمـر النِّـزاعِ فيـه، لـيس مـع قـومِ النَّـبيِّ أو العـربِ فحسـب، بـل مـع البشـرِ جميعـاً علـى اخـتلاف ألسـنتهم وألـوانهم، وأنَّ القـرآنَ معجِـزٌ، وأن الآيـات الكثـيرة، ثم الآيـات القليلـة، كـلُّ ذلـك كـان في تلاوتـه علـى سـامعه مـن العـرب الـدَّليل الـذي يقطـعُ بـأنَّ هـذا القـرآن مفـارِقٌ لجنسِ كلامِ البشرِ في خصائص النَّظمِ والبيانِ.

وهذا هوَ البلاغُ الذي لا معقِّبَ له من بينِ يدَيهِ ولا من خلْفِه، فكلُّ ذي اختصاص إذا وَضَعْتَ بين يديه شيئاً لا تناله قدرة أَهلِ اختصاصه حكـم بالعجْزِ عـن بلوغهـا وتناولهـا، وذلـك واضـحٌ مشـاهدٌ للعيـان، ووصـف الإعجـازِ إذا ثبـت للقـرآنِ ثبـتَ لأيِّ سـورةٍ منـه، فكـان الواقـع معلنـاً أنَّ القليـلَ مـن آيـات القـرآن والكثير منهـا كلُّ ذلك متَّصـفٌ بخصوصيَّةِ الإعجازِ، ومنطَوٍ على دليلٍ مستبينٍ قاهرٍ يُحكَمُ له بأنه ليس من كلام البشر.

وهكذا نجد القرآن تحدى العرب أن يأتوا بمثل سورة واحدة من القرآن، ولو من قصار سوره، وإذا كانت أقصر سورة فيه هي الكوثر تتألف من ثلاث آيات قصار علمنا أن كل آية طويلة معجزة، وكل عدة آيات قصار، تبلغ سورة الكوثر أو أكثر من ذلك فهي معجزة كذلك.

وإذا علمـتَ أن عـدد آيـات القـرآن يزيـد علـى سـتة آلاف آيـة علمـت كـم عـدد المُـعْجِزاتِ في القـرآن الكـريم، فضـلاً عـن النظـر فيمـا يحملـه مـن أوجـه الإعجـاز، فتكـون معجزاتـه بـذلك كثـيرة متنوعـة يضـيق عنهـا الحصـر والتعداد.

مزايا الإِعْجاز القرآني:

كانت معجزات الأنبياء السابقين خوارق مادية حسية وقعت ورآها الناس الذين حضروها في المكان والزمان الذي وقعت فيه تلك الخوارق الحسيَّة، ثم مضت وانقضت، فهي تقيم الحجة على الأجيال القادمة بواسطة نقلها عمن شاهدها مباشرة بمعاينتها.

أما الإِعْجاز القرآني فيمتاز على غيره بمزايا عديدة نذكر منها ما يلي:

١- إن المُعجِزة القرآنية معجزة عقليَّةٌ عامَّةٌ لكُلِّ العهودِ والأَعصارِ، وستظل باقيةً إلى يوم القيامة، فالحجَّةُ بها مُلْزِمَةٌ وقت تنَزُّلِ القرآن على الرَّسولِ الكريم، كما أنها ملزمة في كلِّ آنٍ بعده إلى أنْ يرِثَ اللهُ الأَرْضَ ومن عليها، لأنَّه معجزةٌ بيانيَّةٌ، والبيانُ متاحٌ لكُلِّ الناسِ، وهو معجزةٌ عقليَّةٌ، والعقلُ هِبَةُ اللهِ وهبَها لكُلِّ النّاسِ[1].

٢- إن القرآن لكونه معجزة بذاته فقد اختص بخصوصية انفرد بها عن جميع المُعْجِزاتِ بل عن جميع البراهين والبينات، يقول ابن خلدون[2]: (إنَّ الخوارقَ في الغالبِ تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النَّبيُّ ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه، والقرآن هو بنفسه الوحيُ المُدَّعَى، وهو الخارقُ المُعجِز، فشاهِدُه في عينه، ولا يفتقرُ إلى دليلٍ مغاير له، كسائر المُعْجِزاتِ مع الوحي، فهو أوضح دلالة، لاتِّحادِ الدَّليلِ والمدلول فيه، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «ما مِنَ نبيٍّ مِنَ

---

[1] قارن بالمغني (١٦/٣٤٤). وفيه بيان عموم الإعجاز ، وتكفُّل الله بحفظِه.

[2] في مقدمته: ص١٠٦-١٠٧ طبع مطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٢٩هـ.

الأَنْبياءِ إِلّا أوتِيَ مِنَ الآياتِ ما مِثْلهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّما كانَ الَّذي أوتيتُ وَحْياً أَوْحيَ إِلَيَّ، فَأَنا أَرْجو أَنْ أَكونَ أَكْثَرَهُمْ تابِعاً يَوْمَ القيامَةِ»[1]).

٣ – وثمـَّة خصوصيَّة أخرى بالغة الأهمية في مزايا المُعجِزة القرآنية على غيرها من المُعْجِزاتِ الحسيَّة، تكمن في طبيعة الإعجاز في كلٍّ:

– فالإعجاز في الخوارق الحسيَّة هو أمورٌ مخالفة للمعتاد من سنن الكون، وقواعد الطبيعة، يدركها الناس بمجرَّد مخالفتها لقوانين الطبيعة ويعلمون إعجازها وصدق النبي الذي ظهرت على يديه[2].

– أما إِعْجاز القرآنِ فإنه لم يكن بواسطة مخالفة السنن الكونية، وصرف الإنسان عنها، بل إن معجزة هذا القرآن يدركها الإنسان بمقدار إِعمال عقله وفهمه، بل إنه كلما ازداد معرفة بسنن الكون والطبيعة ازداد يقيناً بإعجاز هذا القرآن.

ولذلك واجه القرآن عناد المشركين وتطلبهم للمعجزات بخصوصيَّةِ القرآن الكبرى التي تجعله يكفي عن كل معجزة، فقال عز وجل:

---

[1] أخرجه البخاري في فضائل القرآن، بابٌ: كَيْفَ نَزَلَ الوَحْيُ، وَأَوَّلُ ما نَزَلَ (٤٩٨١) ومسلم في الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبيِّنا محمد صلَّى اللهُ عليه وسلَّم (١٥٢).

[2] ننبِّه هنا إلى أنها ليست مخالفة للعقلِ، ولا هي مستحيلة في النَّظرِ العقليِّ المجرَّد، أي أنَّ تتابع الأحداثِ في الطبيعةِ، وإنتاج الأسبابِ للمسببات ليسَ واجباً عقلياً، مثل كون الواحد والواحد يساوي اثنين، لكن العادة جرت على ذلك بحكمة الله تعالى وتدبيره، وقد يتحقق السبب ولا يتحقق المسبب لمانع، أو لتدخل قانون طبيعي أعلى من الأول، وهكذا يجري الله المُعْجِزاتِ وفق سنن إلهية خاصة غير معروفة للبشر ، ولا داخلة في تعلمهم ، وهو خالق العالم ومدبره ، ذلك لتحقيق حكمته وإرادته في تأييد رسله وأنبيائه.

﴿وَقالوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّما الآياتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].

شهادة العرب بإعْجازِ القرآنِ:

يُسجِّل التاريخ للأمة العربية مأثرة ليست لأمة غيرهم، هي رسوخهم الأدبي العريق منذ أقدم العصور، التي تصل إلى أعماق العصر الجاهلي، حتى لم يعلم لهم شعر غير ناضج، بل إنهم قد أوتوا من لطف تذوق البيان ومن العلم بأسراره ووجوهه ما يجعلهم يميزون بالبداهة بين الغث والسمين، والأفصح والفصيح، تمييزاً فطرياً، كما نميز الحلو من الحامض، واللون من غيره من الألوان، لا يسع أحداً منهم أن يخون فيه الأمانة، أو يجور في الحكم، كما تشهد بذلك منافساتهم وحكوماتهم الأدبية في المجامع العامة، والمواسم السنوية الحافلة، التي تقام في الأسواق، ويتبارى الشعراء والخطباء، ويحكم بين المتنافسين والمتبارين الحكماء.

وهكذا لما أمر الله نبيه أن يبلغ دعوته للناس راح يتتبع أفراد عشيرته وقومه، يقرأ عليهم ما نزل عليه من القرآن، ولم يكن برهانه إلَّا دليلاً واحداً هو هذا الذي يتلوه عليهم من قرآن يقرؤه، لكنهم أبوا وجحدوا، فدخل عليهم التحدي من كافة أقطار قدرتهم البشرية، وطالبهم أن يأتوا بمثله، لكنهم نكصوا عن معارضته بشيء ينسجونه من كلامهم أو يكون من نظم غيرهم، فإن القرآن وسّع عليهم، ولم يقل لهم «قولوا مثله» بل قال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ [الطور: ٣٤]، وقال: ﴿فَأْتُوا بِسورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨] فما كان بعد هذا أسهل عليهم من النظر في مجدهم اللُّغوي المؤثل يختارون منه ما يجدونه كُفؤاً للمعارضة وإزالة مرارة

التحدي، لكنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك، بل انفضّوا يواجهون الإعجاز والتحدي باعتلالات هزيلة، واعتذارات متهافتة، بأنه أساطير الأولين، أو قول شاعر مجنون أو نحو ذلك من التعلُّلات التي لا تغني عن الحق شيئاً. مما يدل أبلغ الدلالة على عجزهم عن معارضته، ولا سيما أن فيها ذبّاً عن أديانهم ودفاعاً عن آلهتهم التي صارت أقل شيء، وتخلصاً من خِزْيِ السكوت وعار الهزيمة[1].

وقد صدرت عن سادة العرب الفصحاء البلغاء اعترافات صريحة بإعْجاز القرآنِ، أملتها عليهم سجيتهم العربية، وطبيعتهم الفنية التي لا يمكن معها جور ولا محاباة، وإن كانوا مخالفين للقرآن ودعوته.

هذا الوليد بن المغيرة من زعماء مكة جاء إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عمّ إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً، قال: لِمَ؟ قال ليُعْطوكَه فإنك أتيت محمداً لِتَعْرِضَ لما قِبَلَه!!. قال الوليد: قد علمت قريش أني أكثرها مالاً، قال أبو جهل: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وأنك كاره له.

قال الوليد: وماذا أقول، فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجز ولا قصيدة مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة وإن عليه لَطَلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه لَيعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته. قال أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال فدعني أفكّر. فلما فكّر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره[2] من غيره، فنزلت:

---

[1] ينظر كتاب إعْجاز القرآنِ للإمام أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني ص٢٨٩.

[2] لتعرض لما قبله: لتنتفع بماله، طلاوة: رونقاً وحسناً، مغدق: كثير الماء. يأثره: ينقله.

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدوداً * وَبَنِينَ شُهوداً * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كانَ لآياتِنا عَنِيداً * سَأُرْهِقُهُ صَعوداً * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقالَ إِنْ هَذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [المدثر: ١١ - ٢٤].

فليس اعتراف أبلغ مما صدر عن الوليد بن المغيرة، فهو على رياسته وتقدمه في العلم بالفصاحة ينزّه القرآن عن مشابهة شيء من فنون القول الممكنة للعرب. ويجلّي البيان عن رفعة مقامه عن هاتيك الأفانين حتى تندحر جميعها دونه: «إنه ليعلو وما يعلى وإنه ليحطم ما تحته».

وروى الإمام محمد بن إسحاق في (كتاب السيرة) أَنَّ عُتْبَةَ بْنَ رَبيعَةَ، وَكانَ سَيِّداً، قالَ يَوْماً وَهوَ جالِسٌ في نادي قُرَيْشٍ، وَرَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالِسٌ في المِسْجِدِ وَحْدَهُ: يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَلا أَقومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأُكَلِّمَهُ وَأَعْرِضَ عَلَيْهِ أُموراً لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضَها فَنُعْطيهِ أَيَّها شاءَ، وَيَكُفُّ عَنّا؟ وَذَلِكَ حينَ أَسْلَمَ حَمْزَةُ، وَرَأَوْا أَصْحابَ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَزيدونَ وَيَكْثُرونَ، فَقالوا: بَلَى يا أَبا الوَليدِ، قُمْ إِلَيْهِ فَكَلِّمْهُ، فَقامَ إِلَيْهِ عُتْبَةُ حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقالَ: يا ابن أَخي، إِنَّكَ مِنّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنْ السِّطَةِ[1] في العَشيرَةِ، والمكانِ في النَّسَبِ، وَإِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ قَوْمَكَ بِأَمْرٍ عَظيمٍ فَرَّقْتَ بِهِ جَماعَتَهُمْ وَسَفَّهْتَ بِهِ أَحْلامَهُمْ وَعِبْتَ بِهِ آلِهَتَهُمْ وَدينَهُمْ وَكَفَّرْتَ بِهِ مَنْ مَضَى

[1] السطة: الشّرف.

مِنْ آبائِهِمْ، فاسْمَعْ مِنّي أَعْرِضْ عَلَيْكَ أُموراً تَنْظُرُ فيها لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنْها بَعْضَها. قالَ: فَقالَ لَهُ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُلْ يا أَبا الوَليدِ، أَسْمَعْ».

قالَ: يا ابن أَخي، إنْ كُنْتَ إنَّما تُريدُ بِما جِئْتَ بِهِ مِنْ هَذا الأَمْرِ مالاً جَمَعْنا لَكَ مِنْ أَمْوالِنا حَتَّى تَكونَ أَكْثَرَنا مالاً، وَإِنْ كُنْتَ تُريدُ بِهِ شَرَفاً سَوَّدْناكَ عَلَيْنا، حَتَّى لا نَقْطَعَ أَمْراً دونَكَ، وَإِنْ كُنْتَ تُريدُ بِهِ مُلْكاً مَلَّكْناكَ عَلَيْنا، وَإِنْ كانَ هَذا الَّذي يَأْتيكَ رِئْياً[1] تَراهُ لا تَسْتَطيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِكَ، طَلَبْنا لَكَ الطِّبَّ، وَبَذَلْنا فيهِ أَمْوالَنا حَتَّى نُبْرِئَكَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ رُبَّما غَلَبَ التّابِعُ[2] عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُداوَى مِنْهُ أَوْ كَما قالَ لَهُ. حَتَّى إذا فَرَغَ عُتْبَةُ، وَرَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَمِعُ مِنْهُ، قالَ: «أَقَدْ فَرَغْتَ يا أَبا الوَليدِ؟» قالَ: نَعَمْ، قالَ: «فاسْمَعْ مِنّي»، قالَ: أَفْعَلُ، فَقالَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم قال: ﴿حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحيمِ * كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمونَ * بَشيراً وَنَذيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعونَ﴾ [فصلت: ١ - ٤] ثُمَّ مَضَى رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها يَقْرَؤُها عَلَيْهِ. فَلَمّا سَمِعَها مِنْهُ عُتْبَةُ، أَنْصَتَ لَها، وَأَلْقَى يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِداً عَلَيْهِما يَسْمَعُ مِنْهُ، ثُمَّ انْتَهَى رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى السَّجْدَةِ مِنْها، فَسَجَدَ ثُمَّ قالَ: «قَدْ سَمِعْتَ يا أَبا الوَليدِ ما سَمِعْتَ، فَأَنْتَ وَذاكَ».

فَقامَ عُتْبَةُ إلَى أَصْحابِهِ، فَقالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: نَحْلِفُ بالله لَقَدْ جاءَكُمْ أَبو الوَليدِ بِغَيْرِ الوَجْهِ الَّذي ذَهَبَ بِهِ. فَلَمّا جَلَسَ إلَيْهِمْ قالوا: ما وَراءَكَ يا أَبا الوَليدِ؟ قالَ: وَرائي أَنّي قَدْ سَمِعْتُ قَوْلاً واَللَّهِ ما سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، واَللَّهِ ما هوَ بِالشِّعْرِ، وَلا

---

[1] الرئي (بِفَتْح الرّاء وَكسرها) : ما يتَراءَى للْإِنْسان من الجِنّ.

[2] التّابِع: من يتبع النّاس من الجِنّ.

بِالسِّحْرِ، وَلا بِالكِهانَةِ، يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَطيعوني واجْعَلوها بي، وَخَلّوا بَيْنَ هَذا الرَّجُلِ وَبَيْنَ ما هوَ فيهِ فاعتزلوه، فو الله لَيَكونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذي سَمِعْتُ مِنْهُ نَبَأٌ عَظيمٌ، فَإِنْ تُصِبْهُ العَرَبُ فَقَدْ كُفيتُموهُ بِغَيْرِكُمْ، وَإِنْ يَظْهَرْ عَلَى العَرَبِ فَمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ، وَعِزُّهُ عِزُّكُمْ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النّاسِ بِهِ، قالوا: سَحَرَكَ واَللَّهِ يا أَبا الوَليدِ بِلِسانِهِ، قالَ: هَذا رَأْيي فيهِ، فاصْنَعوا ما بَدا لَكُمْ[1]. انتهى.

ولقد تحيَّرتِ العربُ في شأْنِ هذا القرآن لأنه نزَلَ بلسانهم، لسان عربي مبين، ثم هم يجدونه مبايناً لكلامهم، فحاروا ماذا يقولون فيه من طغيان اللدد والخصومة.

ولهذا فإنهم كانوا يخافون أن يُفلِتَ الزمامُ من أحدهم فيدخل في الإسلام لتأثره بعظمة القرآن، حتى قالوا لبعضهم كما سجل القرآن ذلك عليهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

فكانوا إذا تلا النَّبيُّ القرآن عليهم صخبوا وصفّقوا كيلا يتمكَّن النّاسُ من سماع القرآن بهذا الضجيج، فكانت طريقة في الغلبة طريفة ...!!

والحقيقة التي يشهد لها الواقع كما قال الإمامُ أَبو بكرٍ الباقلانيُّ[2]: (إن القوم لم يذهبوا عن الإعجاز، ولكن اختلفت أحوالهم، فكانوا بين جاهلٍ وجاحدٍ، وبين كافرِ نعمةٍ وحاسدٍ، وبين ذاهبٍ عن طريقِ الاستدلالِ بالمُعْجِزاتِ، وحائدٍ عن النَّظرِ في الدلالات، وناقص في باب البحث، ومختل الآلة في وجه الفحص، ومستهين بأمر الأديان، وغاوٍ تحت حِبالة الشَّيطانِ،

---

[1] سيرة ابن هشام (١/٢٩٣-٢٩٤) وينظر: تفسير ابن كثير (٤/٩٠-٩١).

[2] في إعْجاز القرآنِ ص٣٠٤-٣٠٥.

ومقذوف بخذلان الرحمن. وأسباب الخذلان والجهالة كثيرة ودرجات الحرمان مختلفة.

وهلا جعلتَ بإزاء الكَفَرة، مثلَ (لبيد بن ربيعة العامريّ) في حسنِ إسلامهِ، وكعبِ بنِ زهيرٍ في صدْقِ إيمانهِ، وحسان بن ثابت، وغيرهم من الشُّعراءِ والخُطباءِ الذين أسلموا؟.

على أن الصَّدرَ الأوَّل ما فيهم إلا نجمٌ زاهرٌ، أو بحرٌ زاخرٌ) انتهى.

وهذه أمثلة مما أشار إليه الإمام الباقِلاني:

روى مسلمٌ في (صحيحهِ) [1] عن أَبي ذَرٍّ رضي الله عنه حَديثاً طَويلاً عنْ إسلامِهِ، وفيهِ: أَنَّ أنيساً أَخا أَبي ذَرٍّ ذَهَبَ إِلى مَكَّةَ ثمَّ عادَ فَقالَ لأَبي ذَرٍّ: قالَ: لَقيتُ رَجُلاً بِمَكَّةَ عَلَى دينِكَ، يَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ، قُلْتُ: فَما يَقولُ النّاسُ؟ قالَ: يَقولونَ: شاعِرٌ، كاهِنٌ، ساحِرٌ، وَكانَ أُنَيْسٌ أَحَدَ الشُّعَراءِ. قالَ أُنَيْسٌ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الكَهَنَةِ، فَما هوَ بِقَوْلِهِمْ، وَلَقَدْ وَضَعْتُ قَوْلَهُ عَلَى أَقْراءِ الشِّعْرِ، فَما يَلْتَئِمُ عَلَى لِسانِ أَحَدٍ بَعْدي، أَنَّهُ شِعْرٌ، واللهِ إِنَّهُ لَصادِقٌ، وَإِنَّهُمْ لَكاذِبونَ).

ونسوقُ لك تصريحَ جُبيرِ بنِ مُطْعِمٍ بأَنَّ سببَ تحوُّلِ قلبهِ إلى الإسلامِ، أنَّه أَصْغى إلى تِلاوةِ الرَّسولِ سورةَ (الطور) في صلاةِ المَغْرِبِ.

روى البخاريُّ[2] عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ أَبيهِ، قالَ: سَمِعْتُ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقْرَأُ في المَغْرِبِ بِالطّورِ، وَذَلِكَ أَوَّلَ ما وَقَرَ الإيمانُ في قَلْبي».

---

[1] في فضائل الصحابة، باب فضائل أبي ذر رضي الله عنه (٢٤٧٣) وقوله (على دينك) أي مثلك يعبد الله، والمراد بقوله (أقراء الشعر) طرقه وبحوره، وبقوله (فما يلتئم ... أنه شعر) لا يوافق نسقِ الشِّعرِ.

[2] في المغازي والسير، قبيل باب تسمية من سمى أهل بدر (٤٠٢٣).

وهذا عمرُ – وكان في جاهليتِهِ أشدّ الناسِ عداءً للإسلامِ وأَذًى للمسلمينَ – راحَ يمضي في بعض طرقِ مكَّةَ متوشِّحاً سيفه. فلقيه نعيم بن عبد الله وكان يكتم إيمانه، فسأله أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابئ الذي فرّق أمر قريش وسفّه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله، فقال نعيم: لقد غرتك نفسك.. أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم قال: وأي أهل بيتي؟ قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه. فتحول عمر إلى بيت أخته. وكان خبّاب بن الأَرتِّ يعلمها وزوجها سورة طه من صحيفة معه. فلما سمعوا صوت عمر اختبأ خباب. فلما دخل عمر قال: ما هذه الهينمة التي سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئاً، قال: بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بصهره سعيد، فقامت فاطمة لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها، فقالا له: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك. فلما رأى ما بأخته من الدم، ندم وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، فاستحلفته أن يردها سالمة وطلبت إليه أن يغتسل ففعل فلما أخذ الصحيفة قرأ فيها صدر السورة: ﴿طه * ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى * تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّماواتِ العُلَى﴾ [طه: ١ – ٤].

ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه. فلما سمع ذلك خبّاب خرج إليه فقال له: يا عمر والله إني لأرجو أن يكون الله خصك بدعوة نبيه فإني سمعته أمس يقول: «اللهمّ أَيِّدْ الإِسْلامَ بِأَبي الحَكَمِ بْنِ هِشامٍ، أَوْ بِعُمَرِ بْنِ الخَطّابِ» فالله الله يا عمر..

فقال له عمرُ: فدُلَّني يا خبَّابُ على محمدٍ حتى آتيه فأسلم، فدلّه فذهب إليه فأعلن إسلامه[1].

شهادة غير المسلمين والأجانب بإِعْجاز القرآنِ:

وفي عصرنا هذا نجد المُنصفينَ من غير المسلمينَ يشهَدونَ بعظمةِ القُرآنِ وإعجازِهِ، ويعترِفونَ للقرآنِ بذلكَ، فهذا الدكتورُ ماردريس – المستشرق الفرنسي – وقد كلَّفته وزارتا الخارجية والمعارف الفرنسية بترجمة (٦٢) سورة من السور الطوال التي لا تكرار فيها، ففعل، وقدَّم في مقدمة ترجمته الصادرة سنة (١٩٢٦م) نتيجة عملِهِ الطَّويل الضَّخمِ بهذه الشهادة للقرآن فقال:

«أما أسلوب القرآن فهو أسلوب الخالق جلّ وعلا. فإن الأسلوب الذي ينطوي على كنه الكائن الذي صدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلهيّاً. والحق الواقع أن أكثر الكتّاب شكاً وارتياباً قد خضعوا لسلطان تأثيره..».

«ذلك أن هذا الأسلوب الذي طرق في أول عهده آذان البدو كان نثراً جد طريف، يفيض جزالة في اتساق نسق، متجانساً مسجعاً، لفعله أثر عميق في نفس كل سامع يفقه العربية. لذلك كان من الجهد الضائع غير المثمر أن يحاول الإنسان أداء تأثير هذا النثر البديع «الذي لم يسمع بمثله» بلغة أخرى.. وخاصة الفرنسية القاسية الضيقة «التي لا تتسع للتعبير عن الشعور».. زد على ذلك أن اللُّغة الفرنسية ومثلها جميع اللُّغات العصرية ليست لغة دينية. وما استعملت قط للتعبير عن الألوهية»[2].

---

[1] سيرة ابن هشام، حَديثٌ آخَرُ عَنْ إسْلامِ عُمَرَ (١/ ٣٤٣ وما بعدها).

[2] الوحي المحمدي ص٢١-٢٢ وانظر بيِّنات المُعجِزة الخالدة ص١٨٦-١٨٧.

قال مصطفى صادق الرافعي: «وصرح لنا بذلك – أي بإِعْجاز القرآنِ – أديبُ هذه الملَّة وبليغُها الشيخ إبراهيم اليازجي الشَّهير، وهو أبلغ كاتب، أخرجته المسيحيَّةُ، وقد أشار إلى رأيه ذاك في مقدمة كتابه (نجعة الرائد)، وكذلك سأَلنا شاعر التاريخ المسيحي الأستاذ خليل مطران، ولا نعرف من شعراء القوم من يجاريه فأقرّ لنا بمثل ما أقرّ به أستاذه اليازجي، والأمر بَعْدُ إلى العقل «المُنصفِ»، والعقل «المُنصف» ليس له دين إِلّا الحق. والحقُّ واحدٌ لا يتغيَّرُ»[1].

كذلك الأَديب الشّاعر المعاصر نقولا حنا قد تلا القرآن، فجذبه إليه وشغل قلبه وفؤاده، وزاده إيماناً بالله على إيمانه، وقذف في أعماق فكره وضميره يقيناً راسخاً بأن القرآن هو كتاب الله المعجز العزيز وأنه يسمو على سائر معجزات الأنبياء، فهو معجزة إلهية خالدة تبرهن بنفسها على نفسها. وأعلن ذلك في قصيدة من روائع الشعر، عنون لها بهذا العنوان «من وحي القرآن» وقال في هذه القصيدة:

يقولون ما آياته، ضل سعيهم ... وآياته – ليست تُعَدُّ – عظام[2]

كفى معجز الفرقان للناس آية ... علا وسما كالنجم ليس يُرام

فكل بليغ عنده ظل صامتاً ... كأن على الأفواه صُرَّ كمام[3]

---

[1] عن وحي القلم (بتصرف يسير) ص١٥-١٦.

[2] «ليست تُعَدّ» جملة معترضة بين المبتدأ «آياته» والخبر «عظام». والمراد أن آيات النَّبيِّ عظام، أي معجزاته عظيمة جداً، وكثيرة لا يحيط بها العدّ، والإحصاء.

[3] الصرّ: الشدّ أو الربط. الكمام: ما يُكَمُّ به فم البعير لئلا يأكل أو يعضّ.

وشـــاء إلـــه العـــرش بالنـــاس رحمـــة وأن يتلاشـــــى حقـــــدهم وخصـــــام

ففـــرّق مـــا بـــين الضـــلالة والهـــدى بفرقـــــان نـــــور لم يشـــــبه قتـــــام

* * *

النَّظريّاتُ العامَّةُ في بيانِ إِعْجازِ القرآنِ

نظريَّة تفسيرِ الإِعجازِ بالصَّرفَة

نظريةُ إِعجاز نظم القرآن

نظرية إعجاز النظم الموسيقي في القرآن

نظرية الإعجاز بالتَّصوير الفنِّي

مـــدخـل: لقـد حـاول العلمـاء عـبر العصـور الغـوص في أعمـاق القـرآن والبحث عن تفسير إعجازه، فرأوا فيه أوجه إعجاز يَعِزُّ استقصاؤها، وكلما فصَّل باحث منها أوجهاً وظن أنه بلغ الغاية جاء من استدرك عليه وأضاف إلى ما ذكر سابقه ما يضاهيه أو يفوقه.

وقد كان من أعظم هذه المحاولات تلك الجهود التي بُذِلت لإيجاد نظرية إجمالية تكون هي الأصل الذي يمكن تفريع هذه الأوجه المُعجِزة الكثيرة، وكان ذلك مجال اجتهاد قدّم لنا نظريات لها غاية الأهمية في الموضوع، تفيد القارئ أيما فائدة في فهم إِعْجاز القرآنِ وتسهيل الدخول في تفاصيل أوجه وجوانب هذا الإعجاز.

غير أنّ واحداً من أصحاب هذه النظريات شذَّ شذوذاً غريباً نأى به عن الحقِّ، وباعدَ جانب الصَّواب، وهو المتكلِّم الفيلسوف أبو إسحاق إبراهيمُ بنُ سيّار النّظّام (ت: ٢٢٤هـ) القائلُ بمذهبِ الصَّرْفَة، فلنبدأ بشرح مذهبه ونقدِه ثم ننتقل إلى النَّظريّاتِ الأُخرى:

نظريَّة تفسيرِ الإعجازِ بالصَّرفَة

على الرغم من إجماع العلماء على إِعْجاز القرآنِ، وأن إعجازه وصف ثابت له، وعلى الرغم مما عُلِمَ يقيناً من عجز العرب عن أن يأتوا بمثل القرآن، وأنهم عللوا عجزهم بما أدهشهم من حلاوة اللفظ وطلاوة المعنى والتركيب، وعمق ما اشتمل عليه حتى إنه مُغْدِق في جذوره، وكلما تعمق فيه القارئ رأى ما لا يصل إليه البشر. على الرغم من ذلكَ كله وغيره فقد شذ بعض المتكلمين وهو أبو

إسحاق النظّام من المعتزلة، ونحى في هذه المسألة منحى انفرد به دون أهل العلم قاطبة، وعُرِف رأيه بينهم بـ «الصَّرْفَة».

والصَّرْفُ لغة: ردُّ الشيء عن وجهه، والصَّرْفَةُ: على وزن فَعْله اسم للمرة.

والصَّرفة اصطلاحاً: تعني أن الله تعالى صرف العرب عن معارضة القرآن وسلب عقولهم عنها، وكانت في مقدورهم لكن عاقهم أمر خارجي، فصار معجزة كسائر المُعْجِزاتِ[1].

وقد فسَّر النظام إِعْجاز القرآنِ بهذا وقال يشرح رأيه: «إن الله ما أنزل القرآن ليكون حجَّة على النُّبوةِ، بل هو كسائر الكتب المنزلةِ لبيانِ الأحكامِ من الحلالِ والحرامِ، والعرب إنَّما لم يُعارِضوه لأنَّ الله تعالى صرَفهم عن ذلك، وسلبَ علومهم به» اهـ.

وجدير بالذِّكرِ أن هذا القول لا يدخل فيه عنصر الطعن في القرآن، ولا كان في قصد صاحبه ما يحوم حول ذلك، لأنَّه يعترفُ بإِعْجازِ القرآنِ ويشهدُ بأنَّه من عندِ اللهِ تعالى، إلّا أنه شذَّ في تفسير إِعْجازِ القرآنِ.

وإن إِعْجاز القرآنِ البلاغي وسُمُوّه البياني عن أن تبلغه طاقة البشر أمرٌ ظاهر غاية الظُّهور، ولكن التَّفلسفَ وَبُعْدَ النَظّامِ عن معاناةِ أَساليبِ البيان واشتغاله بالأساليب الفلسفيَّة هو الذي أدَّى إلى وقوعه في هذا الخلط الغريب، فإنَّ الفلسفةَ التي قد «تُسيطرُ على عقول بعض الناسِ – كما يقول العلامة أبو زهرة – ولا تكون لها ثمرة ناضجة قد يتَّجهون بها إلى كل ما يرونه بَدْئياً في التَّفكيرِ، سواء أَكانَ متَّصِلاً بالحقِّ المجرَّد أم لم يكن متَّصلاً، وسواء أَكانَ متَّفِقاً

---

[1] البرهان (٩٣/٣)، والإتقان (١١٨/٢).

مع الإيمان والواقع أم لم يكن، بل إنَّ المُتفلْسفينَ ربَّما اتَّجهوا إلى الفكرة، لا لأصالتها، ولكن لغرابتها، ولا لأنها لا بد منها لتحقيق الحق وإبطال الباطل، ولكن للترف العقلي لا يفرقون بين أمر يتصل بالإيمان، وأمر لا صلة له بالإيمان»[1].

وقد لقيَ هذا الرأْيُ الرَّدَّ الشَّديدَ، والنَّقدَ اللّاذعَ من كافَّةِ أئمةِ البَلاغةِ والبيانِ، من مختلف المذاهب حتى المعتزلة أنفسهم، ومنهم تلميذه الجاحظُ (ت: ٢٥٥هـ)، والذي كان معجباً بشخصِ أُستاذِه لكنَّه يعيبُ عليه كما قال: «عَيْبُه الذي لا يفارقه وهو سوء ظنه وقياسُه العارض والخاطر السابق الذي لا يوثق بمثله...» والجاحظُ شيخُ الأُدباءِ وصَيرفيّ البيانِ غير مُنازَع، ولم يكن ردّه على أستاذه ردَّ المحاور المجادل، لكنَّه رد عليه بالعمل، فكان أولَّ من ألَّفَ في إِعْجاز القرآنِ من الناحية البيانية، ليكون الردُّ على الصَّرْفَةِ عمليّاً ببيان الإعجاز الذاتي للقرآن، بل كان الجاحظُ أول من يبلغنا عنه هذا التعبير: «**نظم القرآن**».

وإنَّ الدَّلائلَ على بُطْلانِ مذهَبِ الصَّرفَةِ قائمة ثابتة مأخوذة من الدلائل القرآنية والوقائع التاريخية والموازنات الحقيقية الثابتة، نذكر منها ما يلي:

١- دلالة القرآن: فقد وصف الله تعالى القرآن بأوصاف ذاتية تجعله في منزلة لا تصل إليها معجزات أخرى، مما يثبت كون إِعْجاز القرآنِ ذاتياً.

يقول الله عز وجل: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

---

[1] المُعجِزة الكبرى ص٧٨.

وإذا كان بهذه الأوصاف أَفيُقالُ بعد ذلك أن الناس يستطيعون أن يأتوا بمثله؟؟.

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

فلو لم يكن إعجازُ القرآن ذاتيّاً لقيل: «لو اجتمعوا لما انعقدت لهم عزيمةٌ على الإتْيانِ بمثله...».

ولو سُلِبوا القدرة لم يبق لهم فائدة من اجتماعهم، لمنزلته منزلة اجتماعِ الموتى، وليس عجز الموتى بأمرٍ يُحْتَفَلُ بذكره.

٢- قد عرفنا من قبل شهادات العرب بروعة بيان القرآن، وإعجابهم وتحيرهم من فصاحته وبيانه، فكيف يكون عجزهم لسلب قدرتهم عنه، وقد أحسّوا من أعماقهم سُمُوَّه إلى علياءِ الإعجاز عن أنْ تناله قدرة البشر.

٣- أنه وقعت محاولات من بعض الأدعياء لمعارضة القرآن، كالذي فعله مُسَيْلَمَةُ الكذاب، وسجاحُ، وغيرهما وإن كان الذي أتوا به لعُرّة في جبينهم أبد الدهر وخزياً لهم مدى الأزمان. فإن قيلهم هذا يرجع على مذهب الصرفة بالبطلان والسقوط.

ولا نطيل عليك بالأمثلة خشية أن يثقل عليك سخفه وتفاهته، مثل قول مُسَيْلَمة: «ضِفْدَعُ بنتُ ضفدعين، نقّي ما تنقّين، أَعلاكِ في الماءِ وأَسفلُكِ في الطّينِ، لا الشّارب تمنعين، ولا الماء تكدِّرين، لنا نصفُ الأَرضِ ولقريشٍ نصفها، ولكنَّ قُريشاً قوم يعتَدون».

وكان يقول: «والمبديات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذّاريات قمحاً، والطّاحِنات طحناً، والخابزات خَبزاً، والثّارِدات ثرْداً، واللاّقِمات لقْماً، إهالةً وسمناً، لقد فُضِّلْتم على أَهلِ الوبرِ وما سبقكم أهلُ المدَر، ريفكم فامنعوه، والمُعْتَرّ فآووه والباغي فناوِئوه».

وليس يخفى على ذي عقل أو إنسان له مسكة من ذوق سخف هذا الكلام، واعتماده على سجع الكهان القديم، غير أن العصبية القبلية، وحمية الجاهلية لمنافسة قريش جمعت حوله من اجتمع، حتى قالوها كلمة ذهبت مثلاً في عناد الحق البالغِ غاية الظهور: «كذّابُ ربيعة أحبُّ إلينا من صادق مُضَر»[1].

على أنَّه مهما يكن من ظهورِ ضَعْفِ القولِ بالصَّرْفَةِ وبطلانه، فإنّا نشكر للنَّظّامِ شذوذَه هذا وإغراقَ تفلسُفِه في مسألةِ إعْجاز القرآنِ، لأنَّها أدَّت إلى خيرٍ كثيرٍ وتقدُّمٍ علميٍّ كبيرٍ كان هو السبب فيه، فقد راح العلماء يغوصون أعماق كلام العرب، وأسرار بيان القرآن وإعجازه حتى أدى ذلك إلى إنشاء علوم البلاغة العربية في ظلِّ القرآن، وجوانب البلاغة في بيان الفُصَحاء، وقَصيد البلغاء والشعراء، كما يقول المثل «رُبَّ ضارّةٍ نافعة»، فكَما تولَّد «علم النَّحوِ» عن الخطأ في تِلاوةِ القرآن من قبلُ، تولَّدت كذلك عن الصَّرْفَةِ علوم البلاغة العربية،

---

[1] ارجع في هذا الفصل للتوسع إلى المغني للقاضي عبد الجار الهمذاني المعتزلي (٢١٩/١٦ و٣٢٢-٣٢٨)، والرِّسالة الشّافية للجُرجانيِّ ١٣٣-١٤١، وبيان إعْجاز القرآنِ للخطابي ص٢٠-٢١ ، ودلائل الإعجاز ص٢٩٨-٢٩٩ ، والبرهان للزركشي (٩٣/٢-٩٤) وعنه بنصِّه السيوطي في الإتقان (١١٨/٢)، وإعْجاز القرآنِ للرافعي ص١٦٢-١٦٥ ، وبيِّنات المُعجِزة الخالدة ص٢٠٥-٢٢٣ وفيه تفصيلٌ وتحقيقٌ فريدٌ.

وكانت المحاولات الضَّخمة في كشفِ أَسرارِ إِعْجاز القرآنِ، في دراساتٍ تفصيليَّةٍ، ونظريّاتٍ عامَّة نبدأ بشرحها موجزاً فيما يلي:

نظريةُ إِعجاز نظم القرآن

جاءت نظريَّة نظمِ القرآنِ على يد الإمام اللُّغويِّ البليغ عبد القاهر الجرجاني بعد جهودٍ متتابعةٍ في دراسةِ إِعْجازِ القرآنِ، وفي عصرٍ نضجت فيه العلوم الإسلامية واللُّغوية، واتَّخذت المُؤلَّفاتُ فيه طابعَ التَّعقيدِ، واستكمال أصول التأليفِ.

وقد أقامَ عبد القاهر نظريَّته على تتبع ما يمكن أن يقال فيه إنَّه منبع الإعجاز الأصليِّ، وذلك في مواضِع متفرِّقة من كتابه «دلائل الإعجاز»، بعضها في أوَّله وبعضها في آخره، لكن مجموعها يصلح أن يؤلف استقراءاً يُعتمد عليه.

أثار عبد القاهر احتمال أن تكون الكَلمةُ سرَّ البلاغة والإعجاز، ونفى ذلك بأدلَّةٍ أطالَ فيها حتى خَلُصَ إلى القولِ[1] بأن «الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تَثْبُتُ لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك، مما لا تعلق له بصريح اللفظ. ومما يشهد لذلك أنك ترى الكَلمةَ تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر...».

---

[1] دلائل الإعجاز ص٣٨.

فمهّد بهذا للنظم، ثم فسَّر مراده به فقال[1]: «لا معنى للنظم غير توخي معاني النحو».

لكن الجرجاني لا يقصد بهذا مجرد وقوع الكَلامِ مؤلفاً وفق قواعد النحو كيف كان الأمر، بل يقصد بذلك ما يشمل كيفية التركيب أو أسلوب الكَلامِ.

انظر إليه يوضح نظريته فيقول[2]:

«واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهِجَتْ، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها، وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق، وزيد هو منطلق.

وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: إن تخرج أخرج، وإن خرجتَ خرجت، وإن تخرج فأنا خارج، وأنا خارج إن خرجتَ، وأنا إن خرجتَ خارج...

وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحدٍ منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضع كلاً من ذلك في خاص معناه، نحو أن يجيء بما في نفي الحال، وبلا إذا أراد نفي الاستقبال، وبان فيما يترجَّح بين أن يكون وأن لا يكون، وبإذا فيما علم أنه كائن.

---

[1] دلائل الإعجاز ص٢٨٢.

[2] المرجع السابق ص٦٤.

وينظر في الجمل التي تسرد، فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء وموضع الفاء من موضع ثم، وموضع «أو» من موضع أم، وموضع لكن من موضع بل.

ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الكَلامِ كله، وفي الحذف والتكرار، والإظهار، فيضع كلاً من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له» اهـ.

ويدعم الجرجاني نظريته بالأدلة من الأمثلة الواقعية يدرسها فيقدم لنا مادة لا يستهان بها في مجال النقد والموازنة.

مثل قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

قال الجرجاني[1]: «إن شككت فتأمل! هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأُفردتْ لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟ قل «ابلعي» واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها وكذلك فاعتبر سائر ما يليها.

وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرضُ، ثم أمرت، ثم في أن كان النداء بـ«يا» دون أيّ، نحو يا أيتها الأرضُ، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال ابلعي الماء، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو شأنها، نداء السماء وأمرَها كذلك بما يخصها، ثم أن قيل وغيض الماء «فجاء الفصل على صيغة» «فُعِل» الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر، وقدرة قادر،

---

[1] دلائل الإعجاز ص٣٧، وفيما أورده مناقشة لم نذكرها، لأن المراد بيان وجهة نظره.

ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤]، ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤]، ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة «قيل» في الخاتمة بقيل في الفاتحة. أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟».

ويطبق الجرجاني نظريته على الاستعارة، ومن ذلك قوله: «ومن سر هذا الباب أنك ترى اللفظة المستعارة، قد استعيرت في عدة مواضيع ثم ترى لها في بعض ذلك ملاحة لا تجدها في الباقي. مثال ذلك أنك تنظر لفظة الجسر في قول أبي تمام:

لا يطمع المرء أن يجتاب لجته ... بالقول ما لم يكن جسراً له العمل

وقوله:

بصرت بالراحة العظمى فلم ترها ... تُنال إلا على جسرٍ من التعب

فترى لها في الثاني حُسناً لا تراه في الأول...».

نظرية إعجاز النظم الموسيقي في القرآن

ظهرت هذه النظرية على يد الأديب والكاتب المشهور مصطفى صادق الرافعي، في الربع الأول من القرن الحالي. وكانت الفنون قد اشتد ساعدها، وحازت المسرحيات اهتماماً ظاهراً، مما جعل عنصر النَّغم والموسيقى يظهر في

الفن كعنصر مشارك للأدب في تحقيق هدفه، وبالنغم الملائم في الحوار وأحداث المسرحيات. فظهرت في هذه الأجواء نظرية «النظم الموسيقي في القرآن» على يد مصطفى صادق الرافعي.

وإذا كان الجرجاني قد بدأ في نظرية النظم من التركيب، ولم يدخل اللفظة في إعْجاز القرآنِ، فإن الرافعي بدأ في نظريته بداية معاكسة، بل إنه أوغل فلم يبدأ من الكَلمةِ في القرآن بل من الحرف.

وهذه البداية منطقية بالنسبة لنظريته التي تعتمد على إبراز عنصر الصوت مصدراً للإعجاز، والحرف هو الموجة الأولية والنغمة الأساسية في تكوين النغم القرآني العجيب المعجز.

وفي هذا يقول الرافعي[1]:

«فالحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه، لأنه يمسك الكَلمةَ التي هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة، وهذا هو السر في إعجاز جملته إعجازاً أبدياً، فهو أمر فوق الطبيعة الإنسانية، وفوق ما يتسبب إليه الإنسان، إذ هو يشبه الخلق الحي تمام المشابهة، وما أنزله إلا الذي يعلم «السر» في السموات والأرض».

«وهذا النظم الموسيقي في القرآن معجز: «فإن طريقة النظم التي اتسعت بها ألفاظ القرآن وتألفت لها حروف هذه الألفاظ إنما هي طريقة يتوخى بها إلى أنواع من المنطق وصفات من اللهجة لم تكن على هذا الوجه من كلام العرب»[2].

---

[1] في إعْجاز القرآنِ ص٢٤٠.

[2] المرجع السابق ص٢٤١.

«وحسبك بهذا اعتباراً في إعجاز النظم الموسيقي، وأنه ما لا يتعلق به أحد، ولا يتفق على ذلك الذي هو فيه إلا فيه، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعض مناسبة طبيعية في الهَمس والجهر والشدة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، والتفشي والتكرير...»[1].

وأما في الكَلمةِ وكذا في الجملة فيبسط الرافعي القول ليستوفي البحث ويأتي به على وجوهه التي يراها، ونسوق لك هذه النبذة[2] تتأملها، ثم تتابع بنفسك في كتاب إعْجاز القرآنِ:

«لو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيتَ حركاتها الصَّرفية واللُّغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيهيئ بعضُها لبعض، ويُساند بعضها بعضاً، ولن تجدها إلا مؤتلفةً مع أصوات الحروف مُساوقةً لها في النظم الموسيقي؛ حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيُّها كان، فلا تعذُبُ ولا تُساغ وربما كانت أوْكسَ النَّصيبَيْن في حظ الكَلامِ من الحرف والحركة، فإذا هي استُعملت في القرآن رأيتَ لها شأناً عجيباً، ورأيتَ أصواتَ الأحرف والحركات التي قبلها قد مهَّدت لها طريقاً في اللسان، واكتنفتها بضروب من النَّغم الموسيقي حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه، وجاءت متمكنةً في موضعها، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة.

من ذلك لفظ (النذُر) جمع نَذير؛ فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً، فضلاً عن جَسْأةِ هذا الحرف ونُبوِّه في اللسان وخاصة إذا جاء

---

[1] المرجع السابق ص٢٤٤.

[2] من المرجع نفسه ص٢٥٧-٢٥٨.

فاصلةً للكلام؛ فكل ذلك مما يكشف عنه ويُفصحُ عن موضعه الثقل فيه؛ ولكنه جاء في القرآن على العكس وانتفى من طبيعته في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٣٦] فتأمل هذا التركيب، وأنعِمْ ثم أنعم على تأمله، وتذوَّق مواقع الحروف وأجْر حركاتها في حِس السمع وتأمل مواضع القَلْقَلة في دال ﴿لَقَدْ﴾، وفي الطاء من ﴿بَطْشَتَنَا﴾ وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو ﴿تَمَارَوْا﴾، مع الفصل بالمد، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان، ليكون ثقلُ الضمة عليه مستخَفّاً بعدُ، ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعَها كما تكون الأحماض في الأطعمة. ثم ردّد نظرك في الراء من ﴿تَمَارَوْا﴾ فإنها ما جاءت مساندةً لِراءِ ﴿النُّذُرْ﴾، حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها، فلا تجف عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه، ثم اعجب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في نون ﴿أَنْذَرَهُمْ﴾ وفي ميمها، وللغنَّة الأخرى التي سبقت الذال في ﴿النُّذُرِ﴾».

نظرية الإعجاز بالتّصوير الفنّي

ظهرت هذه النظرية في العقود الأخيرة من هذا العصر، حيث ارتقى التصوير، وظهرت أدوات العرض بالرؤية، فجهد الأدب أن يلحق المصوِّرة، ويحلَّ بالكَلمةِ والعبارة محل الصورة، وكان من البَدَهي أن يلتفت الدارسون إلى إِعْجاز القرآنِ يبحثون فيه عن الصورة وعن فن التصوير.

وكان أن وجدوا في بيان القرآن المعجز أنه معجز في تصويره بالمعنى العصري الحديث، كما أنه معجز في نظمه في نظرية النَّظم القديم.

ولسنا هنا بصدد التَّفصيل في هذه النَّظرية، فلذلك موضعه الخاص به من كتابنا هذا، لكنا نكتفي هنا بأن نبين أن النتيجة التي انتهى إليها بحث «التصوير الفني في القرآن»، لعلها كما قال الدكتور صبحي الصالح[1]: «أن تكون أصدق ترجمة لمفهومنا الحديث لإِعْجاز القرآنِ، لأنها تساعد جيلنا الجديد على استرواح الجمال الفني الخالص في كتاب الله، وتُمَكِّنَ الدارسين من استخلاص ذلك بأنفسهم، والاستمتاع به بوجدانهم وشعورهم، ولا ريب أن العرب المعاصرين للقرآن دُهِشوا قبل كل شيء بأسلوبه الذي حاولوا أن يعارضوه فما استطاعوا، حتى إذا فهموه أدركوا جماله، ومسّ قلوبهم بتأثيره». انتهى.

وجدير بنا بعد هذه اللَّمحاتِ السريعة لبيان إِعْجازِ القرآنِ أنْ نسجِّل نتيجتين على غاية الأهمية:

النتيجة الأولى:

أنَّ أحداً مهما أوتي من العلم والتبحر في اللُّغة والأدب لا يبلغ أن يحيط بأسرار إِعْجاز القرآنِ، بل إن أي عصر من العصور عاجز عن استنفاد أوجه إِعْجاز القرآنِ والإحاطة بها خُبراً، وإنما يبلغ من ذلك مقداراً يتناسب مع ما يمكن أن يحققه هذا الإنسان المحدود وهو يحاول أن يفك أسرار الإعجاز الذي تجاوز الطاقة والحدود. ولذلك قال ابن سراقة: «اختلف أهل العلم في وجه

---

[1] في كتابه «مباحث في علوم القرآن» ص٣٢٠.

إِعْجاز القرآنِ، فذكروا في ذلك وجوهاً كثيرة كلها حكمة وصواب، وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءاً من عُشْرِ معْشاره»[1].

النتيجة الثانية:

إن إِعْجاز القرآنِ لا يتحدد بمقياس فني خاص بزمن من الأزمنة، أو عصر من العصور ، بل إن إِعْجاز القرآنِ يتسع لأي مقياس أدبي صحيح يستجد على مرّ العصور فقط، أو أي ذوق فني سليم، يحسّ به الناس في أي عصر جمال البيان وروعته.

[1] كما في الإتقان (٢/١٢٠).

تفصيل أوجه إِعْجاز القرآنِ

أولاً - أوجه إِعْجاز القرآنِ من حيث البيان

ثانياً - الإعجاز من حيث المضمون

كانت عناية العلماء والأدباء بشرح أوجه إِعْجاز القرآنِ تفصيلاً عناية بالغة، حتى كان ذلك شغلهم الشاغل، وذلك لأن أوجه الإعجاز في القرآن تتنوع تنوعاً واسعاً شاملاً للأسلوب والمضمون، للمبنى والمعنى، مما يجعل الباحث يحس بالتقصير مهما بحث وبالغ في استقصاء الموضوع.

شمول أوجه إِعْجاز القرآنِ:

غير أن هذا الاتساع العجيب والتنوع المتجدد في إِعْجاز القرآنِ حتى حارت فيه العقول، جعل للقرآن مزية جليلة هي شمول إعجازه كل أنواع البشر عرباً وعجماً، من كان مميزاً للكلام البليغ والأبلغ، ومن لم يُرْزَق تلك الموهبة، وإن كانت الحجة تلزم هذا النوع من الناس بشهادة أهل الموهبة الفنية والذوق الأدبي من الفصحاء والعقلاء والبلغاء المراجيح الألبّاء، وبنكوص المعاندين من غير المنصفين أمام التحدي على أعقابهم خاسرين، فإنهم إذا عجزوا وهم أرباب الفصاحة وفرسان البيان كان غيرهم أولى بالعجز والعي أمام هذا التحدي.

على أن إِعْجاز القرآنِ في حق هذه الفئة ليس قاصراً على هذه الطريقة، مع غاية ظهورها وقوتها، بل إن القرآن معجز للعالمين بمضمونه أيضاً، وما اشتمل عليه من العلوم والمعارف، حتى لم يبق في الإعجاز أبلغ ولا أعظم من ذلك الإعجاز.

وسنقدم فيما يلي خلاصات لأوجه هامة من أوجه إِعْجاز القرآنِ مستفيدين من دراسات القدماء، ومن نتائج بحوث الحُدَثاء ونقسمها إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول: أوجه الإعجاز من حيث البيان.

القسم الثاني: أوجه الإعجاز من حيث المضمون.

القسم الأول

أوجه إعْجاز القرآنِ من حيث البيان

الوجه الأول: المنهج البديع
الوجه الثاني: الجزالةَ
الوجه الثالث: التفنُّن في التصرف في لسان العرب
١ – تعبيره عن طلب الفعل
٢ – تعبيره عن النهي
الوجه الرابع: الإبداع
الوجه الخامس: تأليف القرآن الصوتي في شكله وجوهره
١– تأليف القرآن الصوتي في شكله
٢– جوهر تأليف القرآن الصوتي
٢– الفاصلة القرآنية
الوجه السادس: القصد في اللفظ والوفاء بالمعنى
الوجه السابع: خطاب العامة وخطاب الخاصَّة
الوجه الثامن: إقناعُ العقلِ وإمْتاعُ العاطِفةِ
الوجه التاسع: تآلف الألفاظ والمعاني

هـذا القسـم مـن أوجـه إِعْجـاز القـرآنِ أعظـم جوانـب الإعجـاز في القـرآن، وإن كـان قـد يخفـى معـنى عظمتـه علـى كثـير مـن النـاس، والسـبب في عظمـة هـذا القسـم أنـه هـو الـذي بـه كـان القـرآن قرآنـاً، وأن المـنهج البيـاني المعجـز للقـرآن هـو سمـة عامـة لجميـع القـرآن الكـريم، أمـا الأوجـه الأخـرى فيوجـد الوجـه منهـا في بعـض الآيـات دون الآخـر، مثـل إخبـار الغيب، والإعجاز العلمي، والإعجاز التشريعي وهكذا.

وهـذا الوجـه يدركـه العـرب، وهـم أول مـن يُخاطَـبُ بـه وإذا عجـزوا هـم عنه، فغيرهم أعجز وأعجز.

وقـد أطـال الدارسـون القـدماء والمحـدثون في بيـان خصـائص أسـلوب القرآن الكريم، ونلخص منها هذه الجوانب فيما يلي:

الوجـه الأول: المـنهج البـديع المخـالف لكُـلِّ مـنهج معهـود في لسـان العرب وفي غيرها:

بيـان ذلـك وتفصـيله أن نظـم القـرآن لـيس نثـراً كـالنثر، كمـا أنـه لـيس من نظم الشعر في شيء، وكذلك قال رب العزة الذي تولى نظمه:

﴿وَمَـا عَلَّمْنَـاهُ الشِّـعْرَ وَمَـا يَنْبَغِـي لَـهُ﴾ [يس: ٦٩]، وفي صـحيح مسـلم أن أُنَيْسـاً أخـا أبي ذر قـال لأبي ذر: لقيـت رجـلاً في مكـة علـى دينـك يـزعم أن الله أرسـله. قلـت: فمـا يقـول النـاس؟ قـال يقولـون: شـاعر، كـاهن، سـاحر، وكـان أنـيس أحـد الشـعراء. قـال أنـيس لقـد سمعـت قـول الكهنـة فمـا هـو بقـولهم، ولقـد وضـعت قولـه علـى أقـراء الشـعر فلـم يلتـئم علـى لسـان أحد بعدي أنه شعر. والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون.

وكذلك أقر عتبة بن ربيعة أنه ليس بسحر ولا شعر لما قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿حَم﴾ فُصِّلَتْ، على ما سبَقَ بيانه هنالك، فإذا اعترف عتبة بن ربيعة على موضعه من اللسان وموضعه من الفصاحة والبلاغة، بأنه ما سمع مثل القرآن قط كان في هذا القول مقراً بإعْجاز القرآنِ له ولضربائه من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه.

الوجه الثاني: الجزالةَ التي لا تصح من مخلوق بحال، وتأمل ذلك في سورة ﴿ق والقُرْآنِ المَجيدِ﴾ إلى آخرها، وقوله سبحانه: ﴿والأَرْضُ جَميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامَةِ﴾ [الزمر: ٦٧] إلى آخر السورة، وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢] إلى آخر السورة.

قال ابن الحصار: فمن علم أن الله سبحانه وتعالى هو الحق، علم أن مثل هذه الجزالة لا تصح في خطاب غيره، ولا يصح من أعظم ملوك الدنيا، أن يقول: ﴿لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، ولا أن يقول: ﴿ويُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصيبُ بِها مَنْ يَشاءُ﴾ [الرعد: ١٣].

الوجه الثالث: التفنُّن في التصرف في لسان العرب على وجه لا يَسْتَقِلُّ به عربي: وقد قام العلماء بدراسة بعض أنواع من ذلك، وقدموا فيها دراسات باهرة، كثير منها في جوانب لا تخطر على البال فمن ذلك:

١ – تعبيره عن طلب الفعل:

فقد تنوعت طرق هذا التعبير في القرآن تنوعاً لا تجد له مثيلاً في أدب الأدباء ودواوين الشعراء، ذكروا منها أربعة عشر نوعاً ولوناً من ألوان التعبير[١] نذكر منها:

أ– الإخبار بكون الفعل على الناس ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧].

ب– الإخبار عن المكلف بالفعل المطلوب منه ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

ج–الإخبار عن المبتدأ بمعنى يجب تحقيقه من غيره: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾ [آل عمران: ٩٧]. أي مطلوب من الناس تأمين من دخل الحرم.

د– ترتيب الفعل على شرط قبله ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

هـ–استعمال الفعل منفياً معطوفاً عقب استفهام نحو ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكروا.

٢ – تعبيره عن النهي:

وهو متنوع كذلك تنوعاً كبيراً ذكروا منها خمس عشرة نوعاً[٢]، نذكر منها:

---

[١] انظرها مفصَّلة في مناهل العرفان (٢/٢١٥-٢١٦).

[٢] المرجع السابق (٢/٢١٦-٢١٧). زدنا عليه فقرة (ج)، ومن تتبع القرآن وجد مزيداً على ما ذكره هذا المرجع من أساليب الأمر والنهي.

أ- وصفه بأنه ليس براً، ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩].

ب- وصفه بأنه شر ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

ج- وصف موضع الفعل بالأذى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٢٢].

د-هـ- وصف الفعل بأنه من عمل الشيطان، وكذلك تعليق الفلاح على تركه، كقوله في آية تحريم الخمر والميسر ... ﴿رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

وقد كان هذا التفنن العجيب في تصريف الكَلامِ مما لفت نظر العرب وانتباههم، وقد سمع الوليد بن المغيرة قارئاً يقرأ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

فحرَّك الوليدُ رأسَهُ تعجُّباً وقال كلمة هامة في إعجاز الآية: «جمع الأمر والنهي، والاستخبار والحظر والإباحة والترغيب والترهيب، والنداء والجواب. أشهد أن هذا ما خرج من فك بشر». ثم استرجع وقال: إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر[1].

---

[1] الانتصار لنقل القرآن ص٢٧٥.

الوجه الرابع:

الإبداع: وهو أن تكون كل لفظة مِنَ الكَلامِ على انفرادها متضمنة لوناً أو لونين من البلاغة حسب قوة الكَلامِ وما يعطيه معناه، بحيث يأتي في الجملة الواحدة عدة ضروب من البلاغة ولا تخلو لفظة واحدة من لون بلاغي فأكثر[1].

قال ابن أبي الاصبع المصري[2]:

(وما رأيتُ ولا رويتُ في الكَلامِ المنثور والشعر الموزون كآية من كتاب الله تعالى استخرجت منها أحداً وعشرين ضرباً من البديع، وعددها سبع عشرة لفظة، وهي قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤][3] وتفصيلُ ما جاء فيها من البديع:

المناسبة التامة في: ابلعي وأقلعي.

والمطابقة اللفظية في ذكر السماء والأرض.

والاستعارة في قوله: ابعلي وأقلعي للأرض والسماء.

والمجاز في قوله: ﴿يا سَماءُ﴾ فإن الحقيقة: و يا مطر السماء أقلعي.

---

[1] بتصرف عن كتاب بديع القرآن لابن أبي الاصبع المصري ص٣٤٠.

[2] المرجع السابق ص٣٤٠-٣٤٣.

[3] و«أقلعي» أمسكي عن إرسال المطر. أقلع عن عمله كف عنه «غيض الماء»: نقص. «الجودي» : اسم جبل . «بعداً للقوم الظالمين»: هلاكاً لهم.

والإشارة في قوله: ﴿وَغِيضَ الماءُ﴾ فإنه سبحانه وتعالى عبَّر بهاتين اللفظتين عن معانٍ كثيرةٍ؛ لأنَّ الماء لا يَغيض حتى يُقلع مطر السماء وتبلع الأرض ما يخرج من عيون الماء، فينقص الحاصل على وجه الأرض من الماء.

والارداف في قوله: ﴿واسْتَوَتْ عَلَى الجوديِّ﴾ فإنَّه عبَّرَ عن استقرار السفينة على هذا المكان وجلوسها جلوساً متمكِّناً لا زيغ فيه ولا مَيْل، لطُمأنينة أهل السفينة بلفظ قريب من لفظ الحقيقة.

والتمثيل في قوله: ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ فإنه عبَّرَ بذلك عن هلاك الهالكين ونجاة النَّاجين بلفظٍ فيه بُعدٌ ما من لفظ الحقيقة بالنسبة إلى لفظ الارداف، والتَّعليل لأن غَيض الماء علة الاستواء.

وصحَّة التَّقسيم حين استوعب سبحانه أَقسامَ أحوالِ الماء حالة نقصِه، إذْ ليس إلَّا احتباس ماءِ السَّماءِ واحتقان الماء الذي ينبعُ من الأرضِ، وغَيْضَ الماء الحاصل على ظهر الأرض.

والاحتراس في قوله: ﴿وَقِيْلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمِيْنَ﴾ محترساً من توهُّم من يتوهَّم أنَّ الهلاكَ ربما عمَّ من لا يستحق الهلاك فجاء سبحانه بالدعاء على الهالكين ليُعلم أنهم مستحقو الهلاك، فإن عدله منع أن يدعو على غير مستحق للدعاء عليه.

والانفصال فإن لقائل أن يقول: إن لفظة القوم مستغنى عنها، فإنه لو قيل: «وقيلَ بُعْداً للظّالِمِيْنَ» لتمَّ الكلام، والانفصال عن ذلك أنْ يُقالَ: لمّا سبقَ في صدر الكَلامِ قبل الآية قوله تعالى: ﴿وَكُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ

مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨] وقال سبحانه قبل ذلك مخاطباً لنوحٍ عليه السلام: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧] فاقتضت البلاغة أن يُؤتى بلفظة القوم التي آلة التعريف فيها للعهد، ليتبين أنهم القوم الذين تقدم ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ [هود: ٣٨] ووصفهم بالظلم، وأخبر بسابق علم أنهم هالكون بقوله: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧] فحصل الانفصال عن الإشكال، وعُلم أنَّ لفظةَ القوم ليستْ فضلة في الكَلامِ.

والمساواة لأنَّ لفظَ الآية لا يزيد على معناه ولا ينقص عنه.

وحسن النسق في عطف القضايا بعضها على بعض بأحسن ترتيب حسبما وقعت أولاً فأولاً، فإنه سبحانه أمر الأرض بالابتلاع، ثم عطف على ذلك أمر السماء بالإقلاع، ثم عطف غَيضَ الماء على ذلك، ثم عطف على ذلك قضاء الأمر بهلاك الهالكين ونجاة الناجين، ثم عطف على ذلك استواء السفينة على الجودي، ثم عطف على ذلك الدعاء على الهالكين، فجاء عطف هذه الجمل على ترتيب وقوعها في الوجود.

وائتلاف اللفظ مع المعنى لكون كل لفظة لا يصلح في موضعها غيرها.

والإيجاز لأنه سبحانه اقتص القصة بلفظها مستوعبة، بحيث لم يُخلَّ منها بشيء في أخصر عبارة؛ بألفاظ غير مطولة.

والتسهيم لأنَّ من أول الآية إلى قوله تعالى: ﴿أَقْلِعِي﴾ يقتضي آخرها.

والتهذيب لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن، كل لفظة سهلة مخارج الحروف، عليها رونق الفصاحة، مع الخلو من البشاعة، والتركيب سليم من التعقيد وأسبابه.

وحسن البيان من جهة أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكَلامِ، ولا يشكل عليه شيء منه.

والتمكين لأنَّ الفاصلة مستقرة في قرارها، مطمئنة في مكانها غير قلقلة ولا مستدعاة.

والانسجام وهو تحدُّر الكلام بسهولة وعذوبةِ سبكٍ مع جزالةِ لفظٍ، كما ينسجم الماء القليل من الهواء.

وما في مجموع ألفاظ الآية من (الإبداع) وهو الذي سُمي به هذا الباب، إذْ في كلِّ لفظة (بديعٌ) و(بديعان)، لأنَّها كما تقدَّم سبعَ عشرة لفظةٍ تضمَّنتْ أحداً وعشرين ضرباً من البلاغة سوى ما يتعدُّد من ضروبها، فإنَّ الاستعارة وقعت في موضعين: وهما (الابتلاع) و(الإقلاع).

فانظر – رحمك الله – إلى عظمة هذا الكلام، وما انطوى عليه نظمه، وما تضمنه لفظه لتقدّره قدره. وهذا ما ظهر لي منه على ضعف نظري وقلة مادتي من العلوم وكلال ذهني. والله أعلم).

الوجه الخامس تأليف القرآن الصوتي في شكله وجوهره:

وقد سبق بيانٌ موجز للجانب الموسيقي المعجز في القرآن، ونضيف إليه ههنا زيادة بيان بثلاث خصائص وهي: (خاصيَّة تأليف القرآن الصوتي في شكله، وخاصية تأليفه في جوهره، والفاصلة القرآنية):

١- أما خاصية تأليف القرآن الصوتي في شكله: فهي أول ما يسترعي سامع القرآن الكريم عن بُعْدٍ بعيد، بحيث يسمع فيه جملة الحركات والسكنات، والغُنّات والمَدّات، وهكذا... فإن السامِع يجد نفسه إزاءَ لحنٍ غريبٍ عجيبٍ لا يجده في كلامٍ آخر، هو لحنٌ فريدٌ اختص به القرآن لا يوجد في الموسيقى ولا في الشعر، وذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر فإذا هي تتحد فيها الأوزان بيتاً بيتاً وشطراً شطراً، وتسمع القطعة من الموسيقى فإذا هي تتشابه أصداؤها وتذهب مذهباً متقارباً، فلا يلبث سمعك أن يمجها، وطبعك أن يملها إذا أعيدت وكُرّرتْ عليك بتوقيع واحد، بينما أنت من القرآن أبداً في لَحْنٍ متنوع ومتجدد، على أوضاع مختلفة يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء، فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم.

٢- وأما جوهر تأليف القرآن الصوتي: فَيَكْمُن في نظم حروفه ورصفها وترتيب أوضاعها: هذا ينقر وذاك يصفر، وثالث يهمس، ورابع يجهر، وآخر حرف استعلاء وغيره حرف شدة أو رخاوة، وهكذا، ترى الجمال اللُّغوي ماثلاً أمامك في هذا التناغم الموسيقي المعجز، الذي جعل منه القرآن قالباً لما حمله من معاني الرسالة وحِكَمِها وأحكامها، وعقائدها وقواعدها، ومواعظها وزواجرها، وما امتاز به أسلوبها في عرض هذه المعاني من سائر الخصائص المُعجِزة.

٢- الفاصلة القرآنية:

الفاصلة هي الكَلمةُ الأخيرة من الآية القرآنية. ويقابلها في الشعر القافية، أو قرائن السجع، لكنها تختلف عنهما اختلافاً جوهرياً من حيث المبنى والمعنى:

أما من حيث المبنى: فلأنَّ الفاصلة لا تلتزم روياً واحداً، بينما يلزم ذلك في الشعر والسجع.

وأما من حيث المعنى: فالفاصلة لا تأتي لمجرد الوزن والنغم، بل إنها تتصل بالمعنى اتصالاً وثيقاً، بخلاف الشعر والسجع، فما أكثر ما تُسْتَجْلَبُ فيهما القافية والقرينة لمجرد الغرض الشكلي.

ونزيد هذا التمهيد إيضاحاً بالتفصيل التالي:

الفواصل القرآنية بالنظر إلى تماثلها وعدمه:

ليست فواصل القرآن على نسق واحد كما ترى في قوافي الشعر أو قرائن السجع. فهي متماثلة أحياناً في حروفها الأخيرة. وأكثر ما تكون الفواصل تماثلاً في حروف الروي في الآيات والسور المكية كما في سورة الحاقة:

﴿ الحاقَّةُ * ما الحاقَّةُ * وَما أَدْراكَ ما الحاقَّةُ * كَذَّبَتْ ثَمودُ وَعادٌ بِالقارِعَةِ * فَأَمّا ثَمودُ فَأُهْلِكوا بِالطّاغيَةِ * وَأَمّا عادٌ فَأُهْلِكوا بِريحٍ صَرْصَرٍ عاتيَةٍ ﴾ [الحاقة: ١ - ٦].

وتكون الفواصل متقاربة في حروف الروي كما في سورة الدخان:

﴿ حم * والكِتابِ المُبينِ * إِنّا أَنْزَلْناهُ في لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنّا كُنّا مُنْذِرينَ * فيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكيمٍ * أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنّا كُنّا مُرْسِلينَ * رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هوَ السَّميعُ العَليمُ * رَبِّ السَّماواتِ والأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ موقِنينَ * لا إِلَهَ إِلّا هوَ يُحْيي وَيُميتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الأَوَّلينَ ﴾ [الدخان: ١ - ٨].

فالميم والنون حرفان متقاربان في المخرج اللفظي. وأكثر ما تكون الفواصل تقارباً في الآيات المدنية. وقلما يلحظ القارئ فاصلة منفردة عما سواها.

وقد جاء القرآن بأسهل موقف وأعذب مقطع، فكثر فيه ختم كلمة المقطع من الفاصلة بحروف المد واللين وإلحاقُ النون فمكَّن القارئَ الذوّاق من التطريب بذلك أمتع تطريب، وهذا منسجم مع سجية اللُّغة العربية، وقد جنح العرب إليه من قبل. قال علامة العربية سيبويه رحمه الله: (أما إذا ترنَّموا فإنهم يُلحقون الألفَ والواو والياء ما يُنوَّن وما لا يُنوَّن، لأنهم أرادوا مد الصوت)[1].

الفاصلة من حيث صلتها بالآية:

ترتبط الفاصلة بمضمون الآية التي ختمت بها ارتباطاً وثيقاً، وقد قسموها من هذه الناحية عدة أقسام نذكر منها ما يلي:

آ- التصدير: هو أن تتقدم لفظة الفاصلة بمادتها في أول صدر الآية أو في أثنائه أو آخره. كقوله تعالى: ﴿وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهّابُ﴾ [آل عمران: ٨] وقوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضيلاً﴾ [الإسراء: ٢١] وقوله: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ والمَلائِكَةُ يَشْهَدونَ وَكَفى بِاللهِ شَهيداً﴾ [النساء: ١٦٦].

وقد سمَّى البلاغيون المُتقدِّمونَ هذا الصنْفَ «رَدُّ الأَعْجازِ على الصُّدوْرِ».

ب- التوشيح[2]: وهو أن يرد في الآية معنى يشير إلى الفاصلة حتى تعرف منه قبل قراءتها. كقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمونَ﴾ [يس: ٣٧] فإن تالي هذه السورة إذا كان متيقظاً فطِناً ملاحظاً أن فاصلتها النون

---

[1] البرهان: (٦٨/١).

[2] سُمّيَ توشيحاً لأن معنى أول الآية يدل على فاصلتها. فينزل المعنى منزلة الوشاح، ويتنزل أول الكَلامِ وآخره منزلة العاتق والكشح اللذين يجول عليهما الوشاح. «تحرير التحبير: ٢٢٨».

المردَفة؛ هداه صدر ا لآية «انسلاخ النهار من الليل» إلى أن الفاصلة ستكون ﴿مُظْلِمونَ﴾، فإنَّ من انسلخَ النَّهارُ عن ليلهِ أَظلمَ، وظلَّ في الظلمات ما دامت تلك الحال.

جـ- الإيغال[1]: أن تردَ الآيةُ بمعنى تام وتأتي فاصلتها بزيادة في ذلك المعنى على الحد الذي بلغته الآية، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠] فإن المعنى قد تم بهذا القدر مِنَ الكَلامِ. غير أنه يبقى محتملاً معنى التولي مجانبة يلحظ معها المتولي مخاطبه بعض اللحظ، فجاءت الفاصلة ﴿مُدْبِرِينَ﴾ فزادت على معنى الآية، إذْ أوغلت في التعبير عن توليهم، وبالغتْ في تصوير إعراضهم، حتى جعلته متجافياً عن استيعاب أقل إشارة وأيسر ملاحظة. فإن الإدبار إعراض كلي من جميع الجهات عن صاحب الخطاب[2].

فالفاصلة القرآنية قامت بأداء حظ من معنى الآية، ولم ترد البتة مستجلبة ولا قلقلة، ولهذا تجد للتراكيب القرآنية من التلاحم والائتلاف وقوة التماسك ما لا تجده في كلام سائر البشر. فإذا وقفت على تماثل أنغام الفواصل أحياناً وتقاربها أحياناً أخرى، وعلى انسجام كل منها مع جرس الكلمات وإيقاع القاطع في

---

[1] «الإيغال»: يقال: أوغل في الأرض الفلانية: إذا بلغ منتهاها، وكذا: إذا تم معناه في تعداه بزيادة فيه، فقد أوغل. البرهان: ١: ٩٦.

[2] انظر تفصيل بحث الفاصلة في الإتقان (٩٦/٢)، والبرهان (٧٨/١-٩٨)، وبدائع القرآن: ٣٦-٣٧ و٨٩-٩٣ ، وتحرير التحبير: ١١٦-١١٧ ، و٢٢٤-٢٤١ ، ومن بلاغة القرآن: ٧٥-٩٨. وللأستاذ محمد الحسناوي كتاب بعنوان «الفاصلة في القرآن» فراجعه لزاماً.

آيتها أدركت أن ههنا سراً عظيماً من أسرار الإعجاز البياني يأسر قلوب البشر ويستعصي على عبقرياتهم.

الوجه السادس: القصد في اللفظ والوفاء بالمعنى

وهما نهايتان في اتجاهين متضادين، لا يُقْبِلُ المرء على إحداهما إلا ابتعد عن الأخرى، ذلك أن البليغ إما أنْ يؤَدّيَ مراده جملة مختصراً، مقلاً من الألفاظ، فلا بد أن يحيف على المعنى قليلاً أو كثيراً. وإما أن يعمد إلى الوفاء بحق المعنى وتحليله إلى عناصره وإبراز كل دقائقه، فلا يجد بداً من أن يمدّ في نفسه مداً، لأنه لا يجد في القليل من اللفظ ما يشفي صدره ويؤدي عن نفسه رسالتها كاملة.

ولئن وفق البليغ لتقريب هاتين الغايتين تقريباً ما في جملة أو جملتين، فلا يلبث أن يدركه الكلال والإعياء، وضعف الطبع الإنساني فلا يسترجع قوته إلا في الشيء بعد الشيء، كما تصادف في التراب قطعة من التبر ها هنا وقطعة هنالك، فتقول هذا نفيس جداً، وهذا أنفس وأجود... وقد أجمع نقاد الشعر والنثر على أن أبرع الشعراء لم يبلغوا مرتبة الإجادة إلا في أبيات محدودة من قصائد معدودة، ثم وراء ذلك الوسط والردئ والغّث والمستكره...

أما القرآن الكريم فقد جاء البيان فيه مقدراً أحسن تقدير، فلا تحسّ فيه بالإسراف ولا بالتقتير، فهو يؤدي لك الصورة وافية نقية لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها، ولا يشذ عنها شيء من عناصرها وكمالها، كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه، كما قال الإمام أبو بكر الباقلاني: «محاسن تتوالى، وبدائع تترى».

ولنزيدك إيضاحاً في هذا فخذ ما شئت من القرآن، وأحصِ كلماته عداً، ثم أحصِ مثل عددها من أبلغ كلام تختاره خارجاً عن المصحف، وانظر ما حواه

هذا الكلام من المعاني، وقايسه إلى ذلك، ثم انظر كم كلمة تستطيع أن تسقطها من غير القرآن أو يمكن أن تبدلها بأخرى غيرها دون إخلال بغرض قائله؟ وانظر مقابل ذلك أي كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها من القرآن؟؟ لما وجدت لذلك سبيلاً في القرآن، بل إن كتاب الله تعالى –كما قال الإمام ابن عطية –: «لو نُزِعَتْ منه لفظة ثم أُديرَ لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد»، بل هو كما وصفه الله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

الوجه السابع: خطاب العامة وخطاب الخاصَّة

وهاتان غايتان أخريان متباعدتان عند الناس، فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب، ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم، فلا غنى لك – إن أردت أن تعطي كلتا الطائفتين حقها كاملاً من بيانك –أن تخاطب كل واحدة منهما بغير ما تخاطب به الأخرى، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال، فأما أن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكياء والأغبياء، وإلى السوقة والعامَّةِ فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم، فهو قرآن واحد يراه البلغاء أَوْفَى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوى على أفهامهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللُّغة، فهو متعة العامة والخاصَّة على السواء، ميسّر لكُلِّ من أراد ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

الوجه الثامن: إقناعُ العقلِ وإمْتاعُ العاطِفةِ

في النفس الإنسانية قوتان: قوةُ تفكيرٍ، وقوةُ وجدانٍ، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها، فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته، وعن الخير للعمل به، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم، والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين، فيؤتيها حظَّها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معاً.

فهل رأيت هذا التمام في كلام الناس؟

لقد عرفنا كلام العلماء والحكماء، وعرفنا كلام الأدباء والشعراء، فما وجدنا من هؤلاء ولا هؤلاء إلا غلوّاً في جانب، وقصوراً في جانب، فأما الحكماء فإنما يُؤَدّون إليك ثمار عقولهم غذاء لعقلك، ولا تتوجه نفوسهم إلى استهواء نفسك واختلاب عاطفتك، فتراهم حين يقدمون إليك حقائق العلوم لا يأبهون لما فيها من جفاف وعرى ونبو عن الطباع، وأما الشعراء فإنما يسعون إلى استثارة وجدانك، وتحريك أوتار الشعور في نفسك، فلا يبالون بما صوّروه لك أن يكون غيّاً أو رشداً، وأن يكون حقيقة أو تخيلاً، فتراهم جادين وهم هازلون، يستبكون وإن كانوا لا يبكون، ويطربون وإن كانوا لا يطربون ﴿والشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الغاوونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمونَ * وَأَنَّهُمْ يَقولونَ ما لا يَفْعَلونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٦].

وكل امرئ حين يفكر فإنما هو فيلسوف صغير، وكل امرئ حين يحس ويشعر فإنما هو شاعر صغير، فسل علماء النفس: «هل رأيتم أحداً تتكافأ فيه قوة التفكير وقوة الوجدان وسائر القوى النفسية على سواء؟ ولو مالت هذه القوى إلى شيء من التعادل عند قليل من الناس فهل تروها تعمل في النفس

دفعة وبنسبة واحدة؟»، يجيبون بلسان واحد: «كلا، بل لا تعمل إلا متناوبة في حال بعد حال، وكلما تسلطت واحدة منهن اضمحلت الأخرى وكاد ينمحي أثرها، فالذي ينهمك في التفكير تتناقص قوة وجدانه، والذي يقع تحت تأثير لذة أو ألم يضعف تفكيره، وهكذا لا تقصد النفس الإنسانية إلى هاتين الغايتين قصداً واحداً، وإلا لكانت مقبلة مدبرة معاً، وصدق الله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤]، فكيف تطمع من إنسان أن يهب لك هاتين الطِّلْبَيْنِ على سواء، وهو لم يجمعهما في نفسه على سواء؟ وما كلام المتكلم إلا صورة الحال الغالبة عليه من بين تلك الأحوال.

هذا مقياس تستطيع أن تتبين به في كل لسان وقلم أيّ القوتين كان خاضعاً لها حين قال أو كتب، فإذا رأيته يتجه إلى تقرير حقيقة نظرية أو وصف طريقة عملية قلت: هذا ثمرة الفكرة، وإذا رأيته يَعْمِد إلى تحريض النفس أو تنفيرها وقبضها أو بسطها، واستثارة كوامن لذاتها أو ألمها، قلت هذا ثمرة العاطفة، وإذا رأيته قد انتقل من أحد هذين الضربين إلى الآخر فتفرّغ له بعد ما قضى وطره من سابقه، كما ينتقل من غرض إلى غرض، عرفت بذلك تعاقب التفكير والشعور على نفسه.

وأما أن أسلوباً واحداً يتجه اتجاهاً واحداً ويجمع في يديك هذين الطرفين معاً، كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقاً وأزهاراً وأثماراً معاً، أو كما يسري الروح في الجسد والماء في العود الأخضر فذلك ما لا تظفر به في كلام بشر، ولا هو من سنن الله في النفس الإنسانية.

فمن لك إذاً بهذا الكلام الواحد الذي يجيء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرضي حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين، ومن المتعة الوجدانية الطيبة بما يرضي حتى هؤلاء الشعراء المرحين؟.

ذلك الله رب العالمين، فهو الذي لا يشغله شأن عن شأن، وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان، وأن يمزج الحق والجمال معاً يلتقيان ولا يبغيان، وأن يُخْرِجَ من بينهما شراباً خالصاً سائغاً للشاربين، وهذا هو ما تجده في كتابه الكريم حيثما توجهت، ألا تراه في فسحة قصصه وأخباره لا ينسى حق لعقل من حكمة وعبرة؟.

أولا نراه في معمة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب من تشويق وتزويق، وتحذير وتنفير، وتهويل وتعجيب، وتبكيت وتأنيب؟ يبث ذلك في مطالع آياته ومقاطعها وتضاعيفها ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، و﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١٣-١٤].

الوجه التاسع: تآلف الألفاظ والمعاني

التآلف في الألفاظ هو ألا تكون بينها ثغرة في المخارج، ولا في النغم بل تتآلف وتتآخى في نسق واحد.

ويقول الإمام أبو بكر الباقلاني في هذا: «واعلم أن هذا علم شريف المحل عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه، ولا أهل بيت عصمة تفطن لما فيه، وهو أدقّ من السحر وأهول من البحر. وكيف لا يكون كذلك وأنت تحسب أن وضع الصبح في موضع الفجر يحسن في كل كلام إلا أن يكون شعراً أو سجعاً، وليس كذلك، فإن إحدى اللفظتين قد تنفر

في موضع وتزلُّ عن مكان لا تزلُّ فيه اللفظة الأخرى، بل تتمكن فيه وتضرب بجرانها، وتراها في مكانها، وتجدها غير منازعة في أوطانها، وتجد الأخرى لو وضعت في موضعها لكانت محل نفار، ومرمى شرار، ونابية عن استقرار...»[1].

وأما التآلف في المعاني: فهو ألا يكون معنى لفظ نافراً من المعنى الذي يليه، وأن تتآلف الألفاظ والمعاني، وما تثيره من الصور والأخيلة، وما تستدعيه من معان يستلزم بعضها بعضاً، فيتألف من ذلك علم كثير، وأفهام زاخرة.

وهذه الخصوصية هي كغيرها أيضاً مستوفاة في جميع القرآن، وفي كل آية منه، لا يحتاج الدارس والباحث إلى اختيار وانتقاء، بل كيفما قلب المصحف ونظر بعين البصيرة المدركة وجد أي خصوصية يطلبها على أعظم منازل الكمال الذي لا يطيقه إنسان، ووجد أسلوبه ينفذ من كافة أقطار النفس، ويتغلغل في أعماق الأفئدة، فيحملها على الخشوع والإخبات، لما في طياته من قوة وهيمنة تدل عل تنزله من علو، وصدوره عن عظمة الألوهية وشرف الربوبية، وقدرة الإله الحق ذي الجبروت.

فالقرآن بنفسه يدل على قدر متكلمه ويخبر عن مقام منزله عز وجل، كما ينبه على عظيم شأنه تبارك وتعالى، فيثبت لكُلِّ عاقل صحة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وصدق نبوته[2].

---

[1] إعْجاز القرآنِ ص٢٨٠.

[2] انظر في خصائص أسلوب القرآن هذه كتاب الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١/٧٣-٧٥)، و«النبأ العظيم» للدكتور محمد عبد الله دراز ص٩٥ وما بعد، ومناهل العرفان للزرقاني (٢/٢١٥) وما بعد، وبيِّنات المُعجِزة الخالدة ص٣٠٢-٣٠٧ و٣١٧-٣٢٠.

القسم الثاني

الإعجاز من حيث المضمون

الوجه الأول: العلوم التي اشتمل عليه القرآن
الوجه الثاني: الإخبار عن الغيب
أ – الإخبار عن غيب المستقبل
ب – الأخبار عن غيب الحاضر
ج – أخبار الغيب الماضي
الوجه الثالث: الإعجاز التشريعي
الوجه الرابع: اتساق نظريات القرآن وأحكامه
الوجه الخامس: تأثير القرآن وفاعليته في الأفئدة

هذا القسم من أوجه إِعْجاز القرآنِ يعقله ويدركه كل من يفهم الخطاب ويرد الجواب، سواء كان يملك ذوقاً أدبياً فنياً أم لا يملك ذلك التذوق، بل سواء كان عربياً أم غير عربي.

وقد أطال العلماء وتوسعوا في بيان أوجه إِعْجاز القرآنِ من هذه الزاوية، نكتفي ههنا بإشارات موجزة سريعة إلى طائفة منها لضرورة استكمال بحث إِعْجاز القرآنِ.

الوجه الأول: العلوم التي اشتمل عليه القرآن

فقد اشتمل القرآن الكريم على معارف كثيرة متنوعة، تتناول العقائد، والعبادات، والمعاملات، والحياة والأحياء، والكون والطبيعة، والأخلاق والفضائل وغير ذلك مما يطول سرده وبسطه، حتى كان ذلك مما يلفت قارئه مهما كان عليه من العلم، وحتى نجد مثل الدكتور موريس بوكاي يعبر عن دهشته فيقول:

«إن أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه القرآن لأول مرة هو ثراء الموضوعات المعالجة، فهناك الخلق، وعلم الفلك، وعرض لبعض الموضوعات الخاصَّة بالأرض، وعالم الحيوان، وعالم النبات،...».

وقد جاء حديث القرآن عن هذه الموضوعات التي أشارت العبارات إلى جزء منها شاهداً بإِعْجاز القرآنِ من عدة أوجه نذكر منها:

١- أن النَّبيَّ الكريم أمي لا يقرأ ولا يكتب ولم يتردد على أحد من أهل العلم بهذه الشؤون، ومع ذلك فقد جاء بعلوم ومعارف لا ينهض بها عالم مهما كان عليه من العلم والإحاطة بالعلوم لغاية تنوعها وتفرعها وسبقها.

٢ – أن ما ذكره من القضايا عن الكون والطبيعة والحيوان والنبات والخلق يتفق مع المعارف العلمية الحديثة، كما تشهد بذلك المؤلفات الكثيرة التي كتبها العلماء المعاصرون من مسلمين وغيرهم.

٣– جانب قد يستغربه القارئ وهو أن ما لا يحتويه القرآن هام أيضاً ومعجز. فإن القرآن – كما يقول الدكتور موريس بوكاي[١] –: «لا يحتوي في الواقع على ذكر النظريات السائدة في عصر تنزيله عن تنظيم العالم السماوي مثلاً، تلك النظريات التي أثبت العلم فيما بعد عدم صحتها.. ولا بد من التنويه بهذا الطابع السلبي...».

وهذا يفسر لنا طرفاً من أسباب التوائم والتوافق بين الإسلام والعلم حتى لم يعرف التاريخ صراعاً بينهما، وحتى إنك تجد التقدم العلمي الضخم لا يفاجئ أحداً من علماء الإسلام. على عكس ما حدث في أوربة.

الوجه الثاني الإخبار عن الغيب

والقرآن حافل بأنواع الأخبار عن الغيب، غيب المستقبل، وغيب الحاضر، وغيب الماضي، بما يحتاج تفصيله لتأليف واسع كبير، لذلك سنكتفي ههنا بإلْماعةٍ ولمحةٍ وجيزةٍ لضيق المقام عن التَّوسُّعِ فضلاً عن الاستيفاء.

أ – الإخبار عن غيب المستقبل الذي لا يطلع عليه إلا بالوحي؛ كما قال الإمام القرطبي[٢]:

---

[١] في كتابه القيم «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة» ص١٧٥. وانظر الكتاب كلَّه فإنَّه هامٌ جداً، وإن كنا نتحفَّظ عليه في كلامِهِ عن الحديثِ النَّبويِّ الشَّريفِ.

[٢] في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» (١/٧٤-٧٥).

«فمن ذلك ما وعد الله نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله تعالى: ﴿هوَالَّذي أَرْسَلَ رَسولَهُ بِالهُدَى وَدينِ الحَقّ﴾ [التوبة: ٣٣] الآية، ففعل ذلك.

وكان أبو بكر رضي الله عنه إذا أغزى جيوشه عرفهم ما وعدهم الله في إظهار دينه، ليثقوا بالنصر، وليستيقنوا بالنجح، وكان عمر يفعل ذلك، فلم يزل الفتح يتوالى شرقاً وغرباً، براً وبحراً، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الذينَ آمَنوا مِنْكُمْ وَعَمِلوا الصّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأَرْضِ كَما اسْتَخْلَفَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥].

وقال: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسولَهُ الرُّؤْيا بِالحَقّ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرامَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنينَ﴾ [الفتح: ٢٧].

وقال: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧].

وقال: ﴿الم * غُلِبَتِ الرّومُ * في أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبونَ﴾ [الروم: ١ - ٣].

فهذه كلها أخبار عن الغيوب التي لا يقف عليها إلا رب العالمين».

ب – الأخبار عن غيب الحاضر:

في القرآن أخبار كثيرة عن مغيبات حدثت في زمن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ولا سيما مما كان يبيته الأعداء والمنافقون، وقد عُنيت سورة التوبة بكشف دخائل المنافقين ودسائسهم، وفضح مؤامراتهم حتى سُمِّيَتِ الفاضحة.

ومن هذا النوع من الأخبار هذان المثالان:

١- مؤامرة المشركين في بعض الغزوات على المسلمين أن يعطوهم الهدنة التي اعتادوها لأجل الصلاة، ويفاجئوهم بالهجوم عليهم غدراً وهم يصلون، فأنزل الله تعالى بيان كيفية صلاة الحرب بما فيه الوقاية من هذه المكيدة وقال فاضحاً نوايا العدو: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢].

٢- ائتمر المنافقون بتوجيه من اليهود فبنوا مسجداً بجوار مسجد قُباء، زعموا أنه للصلاة وللمساكين يأوون إليه، وطلبوا من النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أن يصلي فيه، فأنزل الله تعالى يكشف خبيئة نفوسهم الخبيثة: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصاداً لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧-١٠٨][1].

ج - أخبار الغيب الماضي:

وذلك كثير جداً في القرآن يتضمن الأخبار عن حوادث قديمة وقعت من قبل، وقصص الأنبياء وأممهم، حتى ليلاحظ القارئ المتأمل عناية القرآن

---

[1] وقد عدَّ صاحبُ (مناهِل العرفان) الإخبارَ عن الملائكَةِ والجنِّ من أَنْباءِ الغَيْبِ الحاضرِ، ونحن نرى أَنَّها تعتبر كذلك بالنسبة لمن سبق منه الإيمان، ولا سيَّما إن قورنت بما عند الأمم الأخرى من علومِ الغيب، أما غير تلك الحالة فهي من الغيبيات التي يتوقَّف الإيمانُ بها على أَصْلِ الإيمانِ بالله ورسلِهِ.

بالقصص، بشكل بارز ملحوظ، وذلك لما يهدف إليه من الحكم والأسرار الجليلة – مما سنذكره بشيء من التفصيل –. لكن الهدف الأكبر والأعظم لهذه القصص هو إثبات إِعْجاز القرآنِ، وأنه وحي من الله تعالى، لأن علم الماضي قد ذهب واندثر. والنبي صلى الله عليه وسلم أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، وقومه كذلك أميون، ولم ينشأ بين أهل الكتاب ولا كان ثمة مدرسة يتعلم منها هو أو أحد من قومه، ولا خالط أحداً من أهل العلم بالكتاب السابق ولا تلقى عن أحد منهم شيئاً قط، فلما جاء بهذه الأخبار ينبئ بها نبأ الأنبياء مع أممهم، فيطابق ما كان عند أهل الكتاب صواباً لما يدخله خطأ، ويصحح ما كان عندهم دخله تغيير أو تبديل ويخبر بوقائع لا يعلمها أهل الكتاب ولا ذكرت في تراثهم دل ذلك على أنه لا يمكن إلا أن يكون تلقياً من عالم الغيب والشهادة. الذي يعلم السر في السموات والأرض.

وقد ذكر القرآن الكريم هذا الوجه من الإعجاز، وصرح به في مواضع متعددة، تأكيداً لإعجازه، وتأكيداً لتحديث المرتاب الشاك، والمنكر المعاند.

فنجده عقب ذكر قصة مريم وكفالة نبي الله زكريا لها يقول: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وكذلك في سورة القصص عقب قصة موسى عليه السلام: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ

الطّورِ إِذْ نادَيْنا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرونَ﴾ [القصص: ٤٤ - ٤٦].

ويقول في سورة هود عقِبَ قصَّةِ نوح مع قومه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

فقد كانَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أُميّاً لم يقرأ كتاباً قط، ولا تعلم من عالم قط، وقومه كذلك أميون، وهو لم يشاهد تلك الحوادث ولا التقى بشخصيات تلك الوقائع التي قصها القرآن، بل قد تعرض للامتحان فيما يأتي به من قصص الغيب الماضي، فطرح عليه أهل الكتاب أسئلة مما يعلمونه مغيباً عنه، فسألوه بواسطة أهل مكة عن أهل الكهف والروح وذي القرنين فأجابهم عن ذلك كله بدقة وتفصيل، فأمنوا من ذلك «.. أنه ما علم إلا بوحي الله وإطْلاعِهِ عليه، وهي أخبار كثيرة، لا يقع الصدق فيها إلا بالوحي من الله عز وجل»[1].

غير أنه كان للتحريف والدس في قصص الأنبياء الذي وقع في تراث الأمم السابقة أثر سيء دفع الباحثين العلميين الأجانب إلى التشكك في هذه القصص، بل إلى الغلو في التشكك، حتى في القضايا البدهية، مثل وجود بعض الأنبياء المتقدمين الذين تدل دلائل اليقين القاطع على وجودهم، بل من كان له الأثر الكبير في تحول الإنسانية مثل إبراهيم أبي الأنبياء، وموسى وعيسى عليهم السلام. ثم جاء ببغاوات الثقافة الأجنبية من أبناء ملتنا ليرددوا بغير علم قالة أولئك ويطبقوها على قصص القرآن ويثيروا حوله الشك والريب، وكان ثمة فئة

---

[1] تثبيت دلائل النُّبوةِ للقاضي عبد الجبارة الهمذاني ص٨٦-٨٧. وفي هذه العبارة إشارة هامة إلى حكمة من حكم كثرة القصص واتساع المساحة التي يحتلها من القرآن، وهي تأكيد هذا الإعجاز.

من الناس تستكثر على هذا الإنسان أن يبقى له مرجع واحد ثابت لا يتطرق إليه الظن، يرقى بهذا الإنسان مما آل إليه من الانحدار.

والعجيب أن القرآن الكريم أحال الناس من قديم على مخلفات الأمم البائدة وآثارهم، من قبل أن يتقدم علم الآثار ليقرأ فيها الباحثون أخبار الأمم ويستنطقوها أحوالها، تأمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ ... ﴾ [الصافات: ١٣٧- ١٣٨] وقال لفرعون: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ [يونس: ٩٢].

لقد أثيرت أسئلة كثيرة حول موسى عليه السلام وعلاقة فرعون بقومه، وزعم بعض الأجانب أنه كان مجرد طاغية كافر، ليس بينه وبين قومه علاقة عبادة، وأثيرت ريبة حول إبراهيم عليه السلام ووجوده، أثار المستشرق اليهود جولد تسيهر هذه الريبة[1].

لكن تقدم علم الآثار وتفوق العلماء في قراءة الأحافير جاء ليسجل مصداق ما جاء به القرآن الكريم، وأنه صحح أخطاء في تراث الأمم السابقة، وتفرد بمعلومات دقيقة لم تكن معروفة عند أحد من العالم.

أما بشأن فرعون فقد تبين من الآثار أنه كان يقيم نوعاً من علاقة التأليه مع شعبه، كما اكتشفت جثته التي تفرد القرآن بالإخبار عن نجاتها: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ [يونس: ٩٢]، وعقد الدكتور موريس بوكاي فصلاً هاماً حول هذه القضية وهو قد شاهد «مومياء» فرعون هذا بنفسه في متاحف

---

[1] في أوائل كتابه : «العقيدة والشريعة في الإسلام» ص١٢ وما بعدها.

القاهرة واختتم الفصل بقوله: «أيّ بيان رائع لآيات القرآن ذلك الذي يخص بدن فرعون والذي تهبه قاعة المومياات الملكية بدار الآثار بالقاهرة لكُلِّ من يبحث في معطيات المكتشفات الحديثة عن أدلة عن صحة الكتب المقدسة»[1].

وأما بشأن إبراهيم الخليل عليه السلام فقد جاءت الحفريات لتثبت أخبار القرآن عنه وعن قومه تلك التي قام بدراستها «ليوناردو وولي» وألّف بناء عليها كتابه عن إبراهيم، وإذا به يخبر عن قوم بابل وعبادتهم للنجوم، وأن عبادة القمر سابقة على عبادة الشمس خلافاً لما قد يتبادر للذهن، وأن رب الأرباب عند اليونان هو كوكب المشتري وليس الشمس أو القمر، ومن ذلك قدم القرآن ذكر الكواكب في قصة إبراهيم ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي . . . ﴾ [الأنعام: ٧٦][2].

ونختم بهذه الكلمة التي يقولها الدكتور بوكاي عن جثة فرعون إذ يقول[3]: «وفي عصر محمد صلى الله عليه وسلم كان كل شيء مجهولاً عن هذا الأمر ولم تكتشف هذه الجثث إلا في نهاية القرن التاسع عشر، وكما يقول القرآن فقد أُنقِذَ بدن هذا الفرعون، وأياً كان هذا الفرعون فهو الآن في قاعة المومياءات الملكية في المتحف المصري بالقاهرة، ويستطيع الزوار أن يروه».

وأخيراً صدق الله العظيم: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو

---

[1] «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة» لموريس بوكاي ص١٤٩-٢٧١.

[2] انظر التفاصيل المثيرة في كتاب «إبراهيم أبو الأنبياء» لعباس محمود العقاد رحمه الله.

[3] «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة» ص٢٦٩.

عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٤٤ - ٤٦].

الوجه الثالث الإعجاز التشريعي

إن القرآن قد جاء بتشريع معجز يثبت أنه تنزيل من الله ووحي منه تبارك وتعالى، وذلك من أوجه كثيرة نذكر منها:

١- أنَّه جاء على لسان رجل أميّ وفي أمة أمية، تعيش الحياة القبلية بكل كيان أفرادها، لا يخطر على بال أحد منهم انتظام أو التزام بقانون عام أو نظام حضاري.

٢- أنه تشريع شامل وكافل لإحقاق الحق، وصيانة مصالح الناس في جميع شؤونهم المالية، والاجتماعية والأسرية، والدولية.

٣- أنه تسامى على كل قانون عرفته الأمم قديمها وحديثها، حتى أقرت المجامع القانونية الدولية الفقه الإسلامي مصدراً أساسياً تقتبس منه القوانين، وأن القوانين الحديثة في تطورها تتسامى لتقترب من الفقه الإسلامي.

قال فضيلة العلامة الكبير الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله[1]:

«ومن هذه الأحكام الشرعية التي اشتمل عليها القرآن، فإنها لا يمكن أن تكون من عند محمد صلى الله عليه وسلم، بل هي من عند الله، وقد كتبنا في هذه عدة بحوث في إحدى المجلات الإسلامية بعنوان (شريعة القرآن دليل على

[1] في كتاب «المُعجِزة الكبرى» ص٩٥، وانظر دراسات مفصلة حول هذا الموضوع وبيان تفوق أنظمة القرآن ص٤٥٤-٥٤٧ منه.

أنه من عند الله) جمعتها إحدى الهيئات الإسلامية في رسالة، ونشرتها، وترجمتها إلى الفرنسية والإنكليزية، وقد أقمنا الدليل على أن تلك الشريعة المحكمة لا يمكن أن يأتي بها أميّ لا يقرأ ولا يكتب وقد نشأ في بلد أميّ ليس به مدرسة ولا مكتب دراسة وهي في أحكامها لا يمكن أن تكون إلا من عند الله تعالى.

وكتبنا بحثاً وازنا فيه بين شريعة القرآن وقانون الرومان في الملكية بالخلافة وذكرنا أن قانون الرومان قد تكون في نحو ثلاثة عشر قرناً ومع ذلك هو بالملكية بالخلافة لا يوازن بشريعة القرآن إلا إذا وازنا بين عصا هشة وسيف بتّار، فلا يمكن أن يأتي به محمد من عنده، بل هو من عند الله تعالى.

والأوربيون القانونيون يرون في قانون الميراث في القرآن أن العقل البشري لم يصل إلى الآن إلى خير منه ونحن نقرر لهذا أن ما ذكره القرطبي غير الصرفة يدل على أن القرآن كله جملة وتفصيلاً هو من عند الله تعالى العليم الخبير».

الوجه الرابع اتساق نظريات القرآن وأحكامه

جاء القرآن الكريم بهداية كاملة شاملة، كافية وافية في جميع الشؤون المختلفة المتنوعة، وزاد عدد آياته على ستة آلاف آية تناولت مختلف الموضوعات التي تزيد على المئات، وجاء ذلك كله متفقاً في معانيه وأحكامه، متسقاً في أسلوبه وإعجازه، فكان ذلك دلالة على أنه كلام الله، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقد فصل الإمام الغزالي وجه الدلالة بهذا تفصيلاً وافياً بإيجاز جميل فقال[1]:

---

[1] كما نقل السيوطي في الإتقان (٢/١٢٤).

«الاختلاف لفظ مشترك بين معان، وليس المراد نفي اختلاف الناس فيه بل نفي الاختلاف عن ذات القرآن، يقال: هذا كلام مختلف، أي لا يشبه أوله آخره في الفصاحة أو هو مختلف الدعوى، أي بعضه يدعو إلى الدين وبعضه يدعو إلى الدنيا، أو هو مختلف النظم، فبعضه على وزن الشعر وبعضه منزحف وبعضه على أسلوب مخصوص في الجزالة وبعضه على أسلوب يخالفه.

وكلام الله منزّه عن هذه الاختلافات، فإنه على منهاج واحد في النظم مناسب أول آخره، وعلى درجة واحدة في غاية الفصاحة، فليس يشتمل على الغث والسمين، مسوق لمعنى واحد وهو دعوة الخلق إلى الله تعالى وصرفهم عن الدنيا إلى الدين.

وكلام الآدميين تتطرق إليه هذه الاختلافات، إذ كلام الشعراء والمترسلين إذا قيس عليه وجد فيه اختلاف في منهاج النظم، ثم اختلاف في درجات الفصاحة، بل في أصل الفصاحة حتى يشتمل على الغث والسمين، ولا يتساوى رسالتان وقصيدتان بل تشتمل قصيدة على أبيات فصيحة وأبيات سخيفة، وكذلك تشتمل القصائد والأشعار على أغراض مختلفة، لأن الشعراء والفصحاء في كل واد يهيمون، فتارة يمدحون الدنيا وتارة يذمونها، وتارة يمدحون الجبن ويسمونه حزماً وتارة يذمونه ويسمونه ضعفاً، وتارة يمدحون الشجاعة ويسمونها صرامة وتارة يذمونها ويسمونها تهوراً، ولا ينفك كلام الآدمي عن هذه الاختلافات، لأن منشأها اختلاف الأغراض بالأحوال.

والإنسان تختلف أحواله فتساعده الفصاحة عند انبساط الطبع وفرحه وتتعذر عليه عند الانقباض. وكذلك تختلف أغراضه فيميل إلى الشيء مرة ويميل عنه أخرى، فيوجب ذلك اختلافاً في كلامه بالضرورة، فلا يصادف إنسان

يتكلم في ثلاث وعشرين سنة وهي مدة نزول القرآن فيتكلم على غرض واحد ومنهاج واحد، ولقد كانَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بشراً تختلف أحواله، فلو كان هذا كلامه أو كلام غيره من البشر لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً».

الوجه الخامس تأثير القرآن وفاعليته في الأفئدة

لو أن إذاعات عالمية أو صحفاً كبرى أخبرت عن دويلة صغرى أنها أخذت بكتاب لديها فارتقت من دحض الضعف والتخلف والجهل إلى أوج القوة والتقدم والعلم حتى اكتسحت الدولتين الأعظم لاعتبرنا ذلك حيلة إذاعية، أو خدعة صحفية، لأن هذا يتنافى مع ما جرت العادة وقوانين الاجتماع، وقد كان العرب أدنى من ذلك حالاً وأشد تخلفاً، وإذا بهم بهذا القرآن وتأثيره فيهم انقلبوا حتى كانوا كما سجل القرآن نفسه في مدحهم: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وهكذا ظل القرآن مدى التاريخ كتاب الهداية، يؤمن بسببه الكافر، ويهتدي الضال، ويتوب الفاسق ويثوب العاصي، مما لا تجده من التأثير العميق لكتاب آخر، وهذا وجه من الإعجاز بديع، ربما غفل عنه كثير من الباحثين، ولنستمع إلى الإمام الخطابي يحدثنا عنه ويجلو وجه إعجازه فيقول[1]:

«قلت: في إِعْجاز القرآنِ وجه آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره بالنفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه، مرتاعة قد عراها من

[1] في رسالته «بيان إِعْجاز القرآنِ» من مجموعة ثلاث رسائل في إِعْجاز القرآنِ ص٦٤.

الوجيب والقلق وتغشاها الخوف والفرق وتقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب، يحول ين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه وصارت عداوتهم موالاة وكفرهم إيماناً».

* * *